اقرأ

حسن الجدّاوى

من أخطاء القضاء

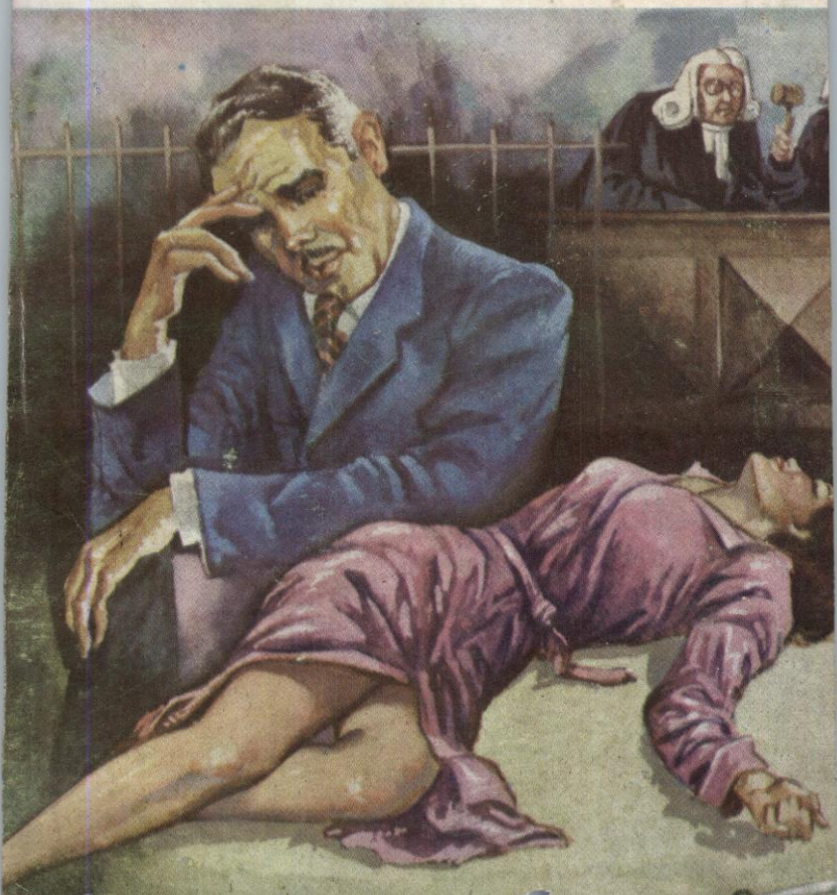

تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

دار المعارف بمصر

حسن الجداوى

من أخطاء القضاء

اقرأ ٣٥١
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٥١ – مارس ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م. ع .

كبش الفداء !

بمناسبة الشروع فى إدخال نظام « المحلفين » فى مصر : « قرار المحلفين يجب أن يستند على الأدلة المقدمة فى الدعوى لا على مجرد قوة إقناع الادعاء » .

يفخر الإنجليز الآن بنظامهم القضائى — وخاصة الجنائى — ويعتقدون أنه لا يدع مجالاً لأى خطأ أو ظلم . فهم لا يتبعون القاعدة التى يأخذ بها غيرهم ، من أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته فحسب . بل إن مجرد الاتهام لا يوجه إلى شخص ، إلا بعد التثبت من إدانته . ولا يقدم للمحاكمة إلا بقرار من محققين ، ولا تجوز مساءلته — فى أثناء المحاكمة — أو مطالبته بالدفاع عن نفسه ، إلا بعد أن يتقدم الاتهام بأدلة مقنعة . وكثيراً ما أوقف القضاة محاكمات ، لأن أدلة الاتهام لم تقنعهم .

ومع ذلك فجميع هذه الضمانات ، لم تحل دون وقوع أخطاء قضائية صارخة ، ذهب ضحيتها أبرياء ، منهم من انتقل إلى الدار الآخرة يشكو لخالقه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، ومنهم من ذاق فى هذه الدنيا مرارة الاتهام الظالم ، وفقد حريته لفترة من الزمن طالت أو قصرت .. وفقد فضلا عن ذلك سمعته وثروته وصحته ، ونبذته الهيئة الاجتماعية بغير ذنب جناه .

ومن الذين كانوا كبش فداء لأخطاء القضاء الإنجليزى ، مجموعة

من الناس حوكموا وأدينوا ، سوف نعرض قضاياهم على صفحات هذا الكتاب ، ونبدأ بقضية :

« وليام هربرت والاس »

رجل فى الثانية والخمسين من عمره ، من سكان ليفربول . يعمل كوكيل شركة تأمين ويتقاضى عمولة عن العمليات التى يأتى بها ، متزوج وليس له أولاد . إيراده السنوى يكفيه ويزيد ، وقد اقتصد مبلغاً من المال لمستقبله ، ويقيم وزوجته جوليا ، التى تزوجها منذ ستة عشر عاماً ، أى سنة ١٩١٥ — إذ نحن الآن فى عام ١٩٣١ — فى منزل صغير من المنازل المتجاورة ، له حديقة صغيرة أمامه . وحوش خلفى . وهما متحابان على أتم وفاق وانسجام .. هى فنانة وأديبة تتحدث الفرنسية بطلاقة ، وهو رجل علم دقيق ، درس الكيمياء ودرّسها . يحرص على كتابة مذكرات يومية ، وهوايته لعبة الشطرنج ، وفى يوم ١٩ يناير من عام ١٩٣١ كان عليه الدور ليشترك فى مباراة شطرنج تقام فى نادى الشطرنج الذى يعقد مبارياته فى إحدى مقاهى المدينة .

ووصل والاس إلى النادى فى الساعة ٧,٤٥ مساء ، وما كاد يبدأ اللعب حتى أقبل عليه رئيس النادى — مستر صامويل بيتى — وقال له :

— مستر والاس .. عندى رسالة تليفونية لك من شخص اسمه كوالترو .

وقال والاس : « كوالترو ؟ من هو كوالترو هذا ؟ »

وأجاب بيتى : « إذا كنت لا تعرفه فأنا أيضاً لا أعرفه . ولكنه يطلب منك أن تقابله غداً الساعة ٧,٣٠ مساء برقم ٢٥ منلوف جاردنز إيست (شرق) ، وهو يقول إن الأمر يتعلق بعملك ، وقد اقترحت

عليه أن يتحدث بعد قليل ؛ فاعتذر لانشغاله بعيد ميلاد ابنته الواحد والعشرين » .

لم يكن والاس يعرف شخصاً باسم كوالترو ، ولا أين توجد منلوف جاردنز إيست (شرق) ، وإن كان اعتقد أنها لابد قريبة من شارع منلوف . فكتب الاسم والعنوان فى مذكرته ، واستمر فى اللعب وكسب المباراة بعد ساعتين . ثم توجه إلى منزله وروى لزوجته موضوع المحادثة ، وما قد ينتظره منها من عمل مربح .

وكان والاس قد اعتاد كلما خرج فى المساء وترك زوجته بمفردها بالمنزل ، أن يخرج من الباب الخلفى . فى الساعة السابعة إلا ربعاً من مساء ٢٠ يناير ١٩٣١ حمل معه الأوراق التى اعتقد أنه بحاجة إليها ؛ واتجه إلى الباب الخلفى حيث ودع زوجته . وأوصاها بأن تغلق الباب بالمزلاج ، ووعدها بأن غيابه لن يطول إلا بالقدر اللازم .

وبدأ يتحرى عن العنوان الذى يقصده بمجرد ركوبه الترام . سأل المحصل إن كانت وجهته منلوف جاردنز إيست (شرق) ؛ وأكد عليه وهو ينقده الثمن أن ينزله حيث يمكنه أن يذهب إلى العنوان المقصود ؛ واستبدل تراماً بآخر ، وسأل عن منلوف جاردنز . وحين نزل من الترام وجد نفسه فى منلوف جاردنز وست (أى غرب) . فذهب إلى رقم ٢٥ ودق الجرس وسأل عن « كوالترو » فأجيب بأنه غير معروف ، وأنهم لا يعرفون مكاناً باسم منلوف جاردنز إيست (شرق) .

ولكنه لم يستطع أن يصدق ذلك أمام صراحة الرسالة التى أبلغت إليه ووضوحها ، فأخذ يقرأ أسماء الشوارع المحيطة ويسأل كل من يقابله ويتلقى الإجابة نفسها . وقابل أحد رجال البوليس ووجه إليه السؤال نفسه ، فقال له إنه لا يوجد شارع بهذا الاسم . ولما كان بطبعه مثابراً — شأن كل المشتغلين بالتأمين — سأل رجل البوليس إن كان يعرف شخصاً

باسم كوالترو ، وأخبره أن شخصاً بهذا الاسم يقيم فى ٢٥ منلوف جاردنز إيست ، تحدث تليفونياً إلى ناديه وحدد له موعداً بخصوص عملية تأمين . وقال رجل البوليس إنه لا يعرف هذا الاسم ولا الشارع .

وخطر ببال والاس أنه ربما استطاع الاستعانة بدليل عناوين ، فأحاله رجل البوليس إلى مكتبة أرشده إليها قال إنه ربما يجد فيها دليلا .. ووجد والاس أن الفكرة صائبة إذا كان يستطيع أن يصلها قبل موعد إغلاق المكتبة ، ونظر إلى ساعته وقال إنها لم تصل إلى الثامنة بعد .. ووافق رجل البوليس محدداً أنها الثامنة إلا ربعاً .

واتجه والاس إلى المكتبة ، وطلب أن يطلع على دليل العناوين . وكان الضيق قد استولى عليه لما لقى من مصاعب فى سبيل العثور على عنوان العميل ، ولأنه تأخر عن الموعد المحدد . وقال لعاملة المكتبة : « هل تعرفين ما الذى أبحث عنه ؟ » .

كان السؤال سخيفاً لا محل له . ولكنه كان قد بدأ يضطرب . فلما أجابته طبعاً بأنها لا تعرف ، قال : « أبحث عن رقم ٢٥ منلوف جاردنز إيست » ، على أمل أن ترشده هى وتوفر عليه عناء البحث .. وقالت السيدة إنه لا وجود لهذا المكان . وبدت عليه علائم الاضطراب وأخذ يبحث عن اسم كوالترو فلم يجده فى الدليل !

وفجأة بدأ ينتابه ذعر . أتراه موضع سخرية أحد السخفاء ؟ ولماذا يسخر منه ؟ لبعض الناس أفكار سخيفة ولكن ما الذى يستفيده إنسان من إرساله يجوب شوارع ليفربول بحثاً عن عنوان لا وجود له ؟

ولكنه رأى مع ذلك مواصلة البحث ، وتذكر أن رئيسه مستر كرو يسكن تلك الضاحية . فاتجه إلى منزله وطرق الباب ولكنه لم يتلق رداً .

ويئس من طول البحث ، وقرر العودة لمنزله . وقد أخذ القلق يستولى عليه لأنه لا يعرف سبباً للسخرية منه — إن كان الأمر سخرية —

وأخذ يحدث نفسه : « بالطبع ربما كان مستر بيتى قد أخطأ فى العنوان ، لكن حتى لو حدث ذلك فإن اسم كوالترو كان لابد أن يوجد فى دليل عناوين ليفربول » .

ثم بدأ يسأل نفسه : « كيف استطاع هذا الكوالترو أن يعرف أنه يستطيع أن يتصل به فى النادى ؟ ولماذا ؟ كانت كل نتيجة هذه السخرية أن أبعدته عن منزله ، وأفسدت عليه تمضية سهرة ممتعة مع زوجته جوليا . لماذا أراد إنسان أن يفعل ذلك ؟ لماذا أراد إبعاده عن منزله ؟ »

لقد كان هو وجوليا يخشيان دائماً اللصوص ، ولذلك كان ينبه عليها بإحكام إغلاق الباب خلفه ، فهو يحتفظ دائماً ببعض المال .. إنك تقرأ عن لصوص يقومون بمثل هذه الألاعيب لإبعاد الرجل عن داره لينفردوا بزوجته .. وها هى جوليا قد مضى عليها بمفردها فى المنزل ساعتان .

* * *

وهكذا تضاعف قلقه وارتباكه حتى وصل إلى منزله . اتجه إلى الباب الأمامى فوجد صعوبة فى فتحه . واعتقد أن جوليا دفعت المزلاج من الداخل ، ثم اتجه إلى الباب الخلفى فلم يستطع فتحه أيضاً . لابد أن تكون جوليا قد أغلقته بالمزلاج كما نبه عليها ، فأخذ يطرق الباب بقبضة يده ، ولكن جوليا لم ترد !

وسيطر على أعصابه ، ولم يترك القلق يتسلط عليه .. ربما تكون قد خرجت تلقى خطاباً فى صندوق البريد .. أو لعلها مستغرقة فى النوم .. وقد لا يكون الباب الخلفى مغلقاً من الداخل ، إذ لا يتصور أن تغلق البابين من الداخل ، وهى تتوقع عودته . إن المفتاح فى بعض الأحيان يتوقف ، ربما كان ذلك هو كل ما حدث .

وأخذ يحاول فتح الباب من جديد ، وفى هذه الأثناء أقبل عليه

جيرانه آل جونستون ، وقالت له مسز جونستون : « مساء الخير يا مستر والاس » .

ولكن القلق الذى كان متسلطاً عليه جعله يقول لها : « هل سمعت شيئاً غير عادى ؟ » .

وقالت مسز جونستون : « لا . لماذا السؤال ؟ هل حدث شىء ؟ »

وشرح لهم الصعوبة التى يجدها فى فتح الباب ، وطلب إليه جونستون أن يحاول مرة أخرى ، واقترح أن يأتى بمفتاح منزله قائلا إن هذه المفاتيح يحل بعضها محل البعض الآخر أحياناً .

وجرب والاس مفاتيحه مرة أخرى ففتحت ، وقال والاس : ها قد انفتح الباب . ثم دخل إلى منزله .

ونادى على جوليا فى المطبخ فلم يجبه أحد ، واعتقد أنها قد تكون نائمة فصعد الدرج ووجد السرير فى الغرفة الأمامية غير مرتب ولكن لا أثر لزوجته ، فعاد أدراجه فى الظلام وأشعل عود ثقاب ليوقد الغاز .

وعندها أبصر جوليا ملقاة على الأرض !

وكانت أول فكرة تبادرت إلى ذهنه أنها مغمى عليها . ولكنه رأى ما يشبه بركة من الدماء ، وتبين — وقد أخذ الرعب منه مأخذاً — أن الأمر أخطر بكثير مما تصوره . واوقد الغاز بيد ترتعش . ورأى برأس جوليا جرحاً عميقاً . ياللهول ! ! وانحنى يجس نبضها فلم يجد لها نبضاً . ونظر إلى وجهها فتبين أنها فارقت الحياة .

وجرى يطلب نجدة حين لات ساعة نجدة ! اتجه إلى الباب الخلفى حيث كان جونستون وزوجته لايزالان واقفين وقال لهما : « تعاليا .. انظرا .. لقد قتلت ! » .

كان يفخر دائماً برباطة جاشه ، وأراد أمام تلك المصيبة أن يبدو هادئاً مسيطراً على أعصابه ، فأشعل سيجارة لمجرد أن يفعل شيئاً ، إذ كان

لابد له من عمل شيء وإلا انهارت قواه . وأبعده جونستون وزوجته من أمام جثة جوليا وانتهيا به إلى المطبخ . وتحدثا عن احتمال حدوث سرقة ، فأخذ يبحث ما إذا كان قد فقد شيء . وصعد السلم فوجد خمسة جنيهات في موضعها لم تمس .

وذهب جونستون يستدعي البوليس ، وبقي هو مع مسز جونستون بالمنزل . . لم يستطع البقاء في المطبخ فعاد إلى غرفة الاستقبال .. ووجد عنده القدرة على أن ينظر إلى جثة زوجته . . حمل نفسه على النظر إليها ، فوجدها ملقاة على معطف مطر (ماكنتوش) عرف أنه معطفه ، ولم يعلل كيف وصل هذا المعطف إلى ذلك المكان . ثم عاد إلى المطبخ ؛ واقترحت مسز جونستون — التي كانت متوترة الأعصاب — إشعال النار لمجرد عمل شيء يشغل بالا . .

* *

وقال والاس : « لقد حدث أمر فظيع يا حضرة الضابط » !

وألقى الكونستابل نظرة على جثة جوليا وتساءل : « كيف حدث هذا ؟ »

وأخذ والاس يشرح موضوع ذهابه إلى منلوف جاردنز للبحث عن العنوان الذي كان يبحث عنه ، وعودته ، والصعوبة التي وجدها في فتح الباب ثم عثوره على الجثة ، وكان الكونستابل يصغي ولا يكتب شيئاً ، ثم دخل الجميع إلى المنزل ، وعند نزولهم من الدور العلوي كان رئيس الكونستابل قد وصل ، ثم حضر غيره من رجال الشرطة من بينهم رئيس المباحث « مور » . وطافوا مرة أخري في أنحاء الدار ، ووجهوا للزوج أسئلة تتصل بالصعوبة التي وجدها في فتح الباب ، والمعطف الماكنتوش ، ومشاعره وتصرفاته حين اكتشف الجثة ..هل ولول ؟ هل صرخ ؟ فأجاب بالنفي : « لقد أضأت الغاز وكنت أظنها في

إغماءة أستطيع إفاقتها منها ! »

وأخيراً ، وبعد الساعة الحادية عشرة بقليل ، أشار عليه رئيس المباحث بأن لا يبيت فى المنزل . ويبحث له عن مكان يمضى فيه ليلته . لدى صديق أو شقيقة زوجته .

* * *

ما أقساهم ! ليتهم تركوه وحده يبكى جولياه . ولكنهم صاروا يستدعونه إلى نقطة البوليس . وفى كل مرة يقابل شخصاً جديداً يمطره بأسئلة جديدة . رئيس المباحث مور ، ورئيس المباحث « توماس » والمفتش « جولد » وغيرهم . وكانت كل أقوال يقولها تسجل ، ويطلب منه أن يوقع عليها ، وتوصف بأنها «إقرارات» . وكان الكونستابل الذى حضر فى أول الأمر ، قد دون ما علق بذاكرته واعتبرت هذه إقرارات أيضاً .. !

وبعد يومين من موت جوليا ، أخبره رئيس المباحث توماس ، أنه تبين أن المكالمة التليفونية مصدرها كابينة تبعد ٤٠٠ ياردة من منزله ! وبدا على رئيس المباحث أنه — لسبب ما — يعتبر هذا الاكتشاف ذا مغزى خاص ! وكان مهتماً أشد الاهتمام بموضوع المكالمة التليفونية .

وخطر على بال والاس ، أن رئيس المباحث يعتقد أن المكالمة التليفونية مفتعلة أو أنها مزاح سمج من أحد الناس ، ووافقه والاس . وعندئذ قال رئيس المباحث : « ربما كانت مقصودة » وتركه — وحده — يحل هذا اللغز .

* * *

ليست مزاحاً ولكنها مفتعلة أو مقصودة ؟ كيف يمكن أن تكون مفتعلة أو مقصودة ؟ وما وراء هذا القول ؟

وأدرك والاس فجأة ما عناه رئيس المباحث ، بل لعله أدرك من البداية ما يرمى إليه ولكنه أبى أن يصدقه .

ومع ذلك . فعليه أن يجابه الأمر الواقع مهما كان فظيعاً . إن رئيس المباحث يعتقد — أو على الأقل يتصور — أنه هو وليام والاس الذى تحدث بالتليفون — بعد أن غير صوته — وترك رسالة إلى بيتى كما لو كانت موجهة إليه هو — والاس — . وفعل ذلك ليمنح نفسه فسحة من الوقت بحثاً عن عنوان لا وجود له ليثبت بذلك غيبته فى وقت ومكان ارتكاب حادث قتل زوجته بينما هو — والاس — الذى قتلها .

كيف أمكن أن يخطر مثل هذا الخاطر ببال شخص أيًّا كان ؟!

طبيعى أن يخطر ببالهم أن يكون قد قتل جوليا ، لأن الاتهام يتجه ، أول ما يتجه — فى مثل هذه الجنايات — إلى الزوج . لقد خطرت له تلك الفكرة منذ البداية . ولكنه لم يحملها أبداً على محمل الجد ، لأنها فكرة لا يمكن تصورها . إن الناس جميعهم يعلمون ، أنه هو وجوليا ، زوجان سعيدان متحابان يخلص كل واحد منهما للآخر . فكيف جاز لأحد أن يتصور ... ؟ ومع ذلك فقد قال رئيس المباحث عن المحادثة التليفونية إنها « ربما كانت مفتعلة » وذلك ما رمى إليه !

وقابل والاس فى الغداة صديقه « بيتى » بطريق الصدفة عند محطة الأوتوبيس . فخطرت له فكرة أن يقضى على ذلك الشك الفظيع . لقد ترك والاس منزله — يوم الحادث — بعد السابعة بقليل . وقال مستر بيتى إنه تلقى المحادثة التليفونية « الساعة السابعة أو بعدها بقليل » فإذا بقى الأمر على هذا الوضع ، يكون من المحتمل أن يكون هو — أى والاس — مصدر الحديث التليفونى ... بالنسبة للوقت على الأقل : أما إذا ثبت أن المحادثة كانت فى الساعة السابعة تماماً أصبح مستحيلا أن يكون هو الذى تحدث ، لأنه غادر المنزل بعد السابعة .

واختمرت الفكرة لديه ، ووجد أنها حل موفق ، فقال لمستر بيتى : « بخصوص المحادثة التليفونية .. هل تستطيع أن تحدد وقتها بالضبط » ؟

فلما أجابه بيتى : « السابعة أو بعدها بقليل » .

قال له : « ألا تستطيع أن تحدد الوقت أكثر من ذلك ؟ » فقال بيتى إنه لا يستطيع . وهكذا تلاشت فكرة بدت موفقة ، وكان ذلك من سوء الحظ !

وكان سوء الحظ أكثر مما تصوره والاس ، فقد دعاه فى اليوم التالى رئيس المباحث « مور » إلى نقطة البوليس ، ووجد معه المفتش « جولد » وأدهشه أنهما أحيطا علماً بموضوع حديثه فى الشارع مع بيتى . كان واضحاً أن بيتى قد أبلغهما به ، ولكنه حديث عابر تافه لا قيمة له ولا يتصور أن ينتقل مستر بيتى إلى البوليس للتبليغ عنه . لابد إذاً أن شخصاً ما سأل بيتى : « ماذا كان مستر والاس يقول لك ؟ »

ومعنى ذلك أنه هو — والاس — موضوع تحت المراقبة ، ورئى يتحدث إلى بيتى !

لابد إذاً أن الشك فيه أصبح قوياً ، حتى تتبعه عيون البوليس أينما ذهب . ففكر فى أن يفقد حديثه مع بيتى — الذى أدرك الآن سخافته — كل قيمة . وخطر بباله — ومعه حق — أن هذا الموضوع أشبه بلعبة الشطرنج . إذا قمت بحركة خاطئة ، استغلها خصمك . فلابد لك من أن تبذل أقصى مهارتك فى الحركة التالية لتصحح موقفك ..

فلما سأله رئيس المباحث عن أهمية ذلك قال — معتقداً أن إجابته ماهرة لتصحيح الأوضاع — : « لقد خطرت لى فكرة .. وكل واحد منا تخطر له أفكار .. لقد كان ذلك إقحاماً منى لنفسى فيما لا يجب ! » .. ولم يبد على مستر مور أنه مقتنع .. فطلب منه أن يزيد الأمر إيضاحاً .

قال : « لا أستطيع . إننى أعترف أن ذلك كان منى تطفلا ! » .. ولكن لم يظهر أن مور اقتنع .

* * *

وسارت الأمور .. مزيد من الأسئلة .. ومزيد من التلميحات .. واستجوابات تتكرر .. وملاحظات تؤخذ ، وإقرارات تقدم إليه ليوقع عليها — حتى اختلطت المسائل فى فكره وأصبح لزاماً عليه أن يتنبه ، ويتذكر ما قاله عن كل موضوع منذ أيام .... فإذا تضاربت أقواله فى أتفه الأمور ، وجد من يقول له : « لكنك قلت منذ ثلاثة أيام كذا وكذا » . . !! ويبرز له إقراره السابق !

وتفاقمت الأمور لدرجة أنه لم يعد يذكر جوليا ، شغله عنها انشغاله بما يمر بخاطر المحققين من شكوك وبسؤاله نفسه : وماذا يقصدون بهذا السؤال أو ذاك !! .. بينما كان يجب أن يتركوه يفكر فى جوليا .

* * *

وذات يوم قبضوا عليه ، وحذروه ، ووجهوا إليه تهمة قتل زوجته عمداً . كانت صدمة له — برغم أنه كان قد توقعها — وقال : « ماذا عساى أن أقول فى هذه التهمة التى أنا برىء منها ؟ »

وبدأت محاكمته فى الثانى والعشرين من أبريل . وشعر بأغرب شعور له فى حياته وهو يستمع إلى رئيس المحكمة يوجه الحديث للمحلفين : « إن المتهم الماثل أمامكم ، وليام هربرت والاس ، متهم بالقتل العمد ، وذلك أنه فى يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٣١ بمدينة ليفربول قتل جوليا والاس وقد وجهت إليه التهمة فأنكرها وهو يضع نفسه بين أيديكم أنتم مواطنيه ، لتبحثوا ما إذا كان مذنباً أو غير مذنب ، وتقرروا ذلك بعد سماع أدلة الاتهام »

وبدأ ممثل الاتهام مرافعته ثم وجه كلامه إلى المحلفين قائلا :

«يرى الاتهام أن الذى تحدث من تليفون الكابينة — هو المتهم نفسه.. « قد تظنون أن الشخص الذى تكلم وحدد ذلك الموعد أراد إبعاد المتهم

عن طريقه فى الليلة التالية ؟ وقد تقتنعون بأنه أراد أن يحمل الناس على الاعتقاد ، أن شخصاً ما أراد أن يبعده فى الليلة التالية ؟

« قد تحسبون أن الأحاديث مع سائقى الترام وغيرهم أمور طبيعية .. وقد تتبينون أنها ليست طبيعية ؟

« قد تعيرون اهتماماً خاصاً بواقعة إخراج الساعة لكى يؤكد لرجل الشرطة الوقت الذى تقابلا فيه ؟

« ترى لماذا خامره الشك لأن شخصاً أعطاه عنواناً خاطئاً ؟؟؟ من الصعب تفسير ذلك .

« لنفرض أنكم سوف تنتهون إلى أنه لم تكن هناك صعوبة حقيقية فى فتح أبواب المنزل .. عند ذلك تجدون أنفسكم ، أمام شخص كان يستطيع — بكل سهولة — فتح الأبواب ، ولكنه تظاهر بأنه لم يستطع فتحها .

« ربما توقعتم منه صرخة ألم وحزن مرير ؟ لننظر ما الذى حدث ؟ خرج وقال : تعاليا انظرا لقد قتلت .

« وقد يتبادر إلى فكركم أن السؤال الموجه لمستر بيتى . والمحادثة التالية مع البوليس ، توحى بأن المتهم كان يعد دفاعه . فلماذا تصور نفسه فى خطر ؟ وما الذى عناه بقوله : خطرت لى فكرة وكلنا تخطر له أفكار .

« سيقول لكم الشهود إن كان قد ظهر بمظهر الزوج المكسور الجناح أو أنه كان — فى الظاهر على الأقل — هادى الأعصاب .

« فإذا تبينتم أن الأدلة المقدمة لكم تؤدى حتماً إلى نتيجة لا مجال للشك فيها : هى أن هذا الرجل ، لسبب لا نستطيع أن نفسره ، قتل زوجته فى تلك الليلة ، فلن تترددوا فى أداء واجبكم » .

* * *

ولم يدرك ولاس . الحكمة فى عدم ترك الشهود يدلون بما لديهم من معلومات ، بغير حاجة إلى تلك الأسئلة والإجابات ، التى بدت له مجرد إضاعة للوقت . ومن ذلك مثلا الأسئلة التى وجهت إلى خادمة المقهى :

س — ما حجم ذلك المقهى ؟ هل هو مكان فسيح ؟

ج — نعم

س — وبه عدد كبير من الطاولات ؟

ج — نعم

س — وبه نادى شطرنج يشغل بعض الطاولات فى أيام معينة ؟

ج — نعم

وتساءل ولاس :

« ما دخل هذا فى موضوع التهمة »

ومع ذلك — من وجهة نظر البوليس — كانت هذه الأسئلة ضرورية لمعرفة كيف استطاع كوالترو إن كان إنساناً حقيقيًّا أن يعرف أن المتهم سيكون بالمقهى يوم ١٩ يناير لقد كان نادى الشطرنج يقيم مباريات فى أمسيات مختلفة . وكان هناك كشف معروض بالمقهى ، به أسماء المتبارين والأوقات المحددة لهم . وكان فى متناول أى شخص يدخل المقهى ليتناول قدحاً من القهوة أن يراه .

بهذه السهولة أمكن حل هذا اللغز وأشياء كثيرة أخرى كانت غير واضحة فى البداية .

ومع ذلك فإن ممثل الاتهام كان يحور كل إجابة ليجعلها تبدو موضع شك مريب . واستمر يقول للمحلفين : « قد تجدون غريباً ..»

ومضى الاتهام فى هذه السياسة . يبسط أبسط الأعمال وأكثرها وضوحاً ، لامتحان قاس ، وينظر إليها من عدة جوانب ، ويهتم بها اهتمام الكلب بقطعة من العظم ، ثم يقول عنها إنها تدعو للاستغراب ،

فمن مواضع الاستغراب — وبالتالى من مواضع الشك الكبير — أن المتهم حين قيل له إنه لا يوجد ما يسمى منلوف جاردنز إيست ، استمر يبحث ويسأل قبل أن يعدل نهائياً .. ولكن أليس ذلك هو ما يفعله الإنسان فى أغلب الأحيان ؟ تقول زوجتك إن بائع اللبن الذى يوزعه فى الصباح لم يحضر . فتقول لها « حقاً؟ » . وتذهب لترى بعينيك . لا شاكاً فى أقوال زوجتك ، ولا متهماً لها بالكذب ، ولكن لمجرد التأكد . كل واحد منا يفعل ذلك . ولكن حين يوصف بالغرابة — فى ساحة المحكمة إنك لم تتقبل قول زوجتك دون مراجعة ، يصبح الأمر غريباً . ولأنه غريب فلابد أنه يخفى دوافع مجهولة ... مما يثبت إدانتك .

ثم كانت هناك التناقضات الغريبة فى إقراراته .

فحين خرج من منزله قاصداً منلوف جاردنز إيست أوصلته جوليا إلى الباب الخارجى تودعه ، وأوصاها بأن تغلق الباب بالمزلاج . إنه يذكر ذلك بوضوح . ولكن ظهر الآن أنه كان قد قال فى أحد إقراراته — أمام الكونستابل الذى كتبها فيما بعد — « وعادت زوجتى وأغلقت الباب خلفى بالمزلاج » . بينما قال فى إقرار آخر : « وأغلقت زوجتى الباب ولا أذكر إن كانت قد دفعت المزلاج أم لا » .

وصف هذا التضارب بأنه غريب ، ولم يبد على أحد ، أنه يظن ، أن هذا هو الأمر الطبيعى . لقد قال لجوليا أن تغلق الباب بالمزلاج . وافترض أنها لابد فعلت ، فهى دائماً تفعل أمثال هذه الأمور حين يطلبها منها ... ولكنه فكر فى الأمر بعد ذلك ، فوجد أنه لا يستطيع الجزم بأنه سمع المزلاج يغلق فقال ذلك .. وكان صادقاً دقيقاً ، ولكن دقته اتخذت دليلا ..ضده ! وقال ممثل الاتهام للمحلفين : « قد تعتقدون أن من الغريب فى موضوع كهذا ، يفترض فيه أن يتذكر الإنسان جميع التفاصيل بوضوح ، لأنها المقابلة الأخيرة ، فلماذا يصدر عنه قولان متناقضان؟ »

ومع ذلك فهناك أناس غيره ، سمح لهم بالوقوع فى أخطاء لم يعرها أحد أى اهتمام ... ذلك لأنهم لم يكونوا داخل قفص الاتهام ...هناك مثلا رجل اسمه بروفسور ماكفول – أستاذ علم الطب الشرعى بجامعة ليفربول – وممتحن التشريح الطبى بجامعات جلاسجو وأدنبره ومانشستر وبرمنجهام ، فإذا كان هناك إنسان مطالب بأن يكون دقيقاً فى تعبيراته فهو ذلك الإنسان . لقد وقف يدلى بشهادته عن علامات تشريحية ، خاصة بتيبس رمى يحدث تقريباً « بعد ساعتين من الوفاة». وقال له ممثل الاتهام « ألست تقصد ثلاث ساعات ؟ »

فأجاب البروفسور بهدوء : « نعم ثلاث ساعات » !

ولم يقل أحد إن فلتة اللسان هذه – أو هذا التناقض أمر غريب يدعو للدهشة . ولم ينظر أحد للبروفسور بريبة ، كما لوكان يستحق الشنق .

وعلى هذا النمط تجرى الأمور . أما إذا دخلت قفص الاتهام فكل أمر صغير لا أهمية له عند الآخرين يحسب عليك ..

وكثر الكلام فى المحكمة ، حول المعطف الذى وجد تحت جثة جوليا . لقد قال ولاس لمسز جونستون إنه معطفه . وقال للكونستابل إنه معطفه . وقال لرجال آخرين من رجال البوليس نفس القول . فلما سأله رئيس المباحث مور : « هل هذا معطفك ؟ » . شعر – أمام كثرة الأسئلة ، أن ملكيته للمعطف موضوع شك ، فاحتاط فى إجابته هذه المرة ، وقال جواباً ليس فيه إنكار لملكيته للمعطف ، بل توكيد لها ، ولكن تلك الإجابة انقلبت عليه ، وأخذت ضده ككل شىء فى القضية . فقد وقف رئيس المباحث مور يدلى بشهادته أمام المحكمة فقال : « سألته إن كان المعطف معطفه ، فأطرق قليلا ووضع يده اليسرى على ذقنه ، ونظرت إليه فظل صامتا نحو نصف دقيقة .. ثم قال : إن كان به

رقعتان فى الداخل فهو معطفى ولما وجدنا الرقعتين قال : نعم ، معطفى .

فلما سأل محامى الدفاع رئيس المباحث مور فيما بعد، لماذا استغرب ما حدث ؟ قال :

كان يجب أن يقول على الفور : « معطفى ! »

فلما سأله المحامى : « ماذا تستنتج من تردده ، مع أنه قرر من البداية لعدة أشخاص ، ثلاثة منهم من رجال البوليس ، أن المعطف معطفه ؟ »

قال : « إنه بدأ يعتقد أن المعطف خطر ! »

وهكذا انقلب الأمر الطبيعى اتهاماً له ، ولم يفكر أحد — ولا حتى محامى الدفاع — أن يسأل : « لماذا يكون غريباً أن يبحث هو ويدقق فى البحث عن منلوف جاردنز إيست ، ولا يكون غريباً أن يسأل هو — أربع مرات — عن ملكيته المعطف » .

وترافع محاميه فقال :

« سنبين لكم بكل سهولة ، أن تصرفات هذا الرجل فى يومى ١٩ و ٢٠ يناير ، كانت تصرفات رجل طبيعى ، وأنه — إذا كان قد دبر وارتكب تلك الجريمة النكراء — فقد استمر فى هذين اليومين يتصرف دون أن تظهر عليه أية دلائل ارتباك .

« لعب الشطرنج لمدة ساعتين ، فى حين — على حسب نظرية الاتهام — كانت فى جيبه تلك الرسالة الممهدة لارتكاب الجريمة . ومع هذا كسب المباراة . لو أن هذه الرسالة صدرت عنه ، وأنها الخطوة الأولى لترتيب جريمة قتل زوجته ، فأى نوع من الشطرنج كان يلعب ؟ وأى نوع من التركيز الذى تتطلبه اللعبة ، كان يقوى عليه ؟

« وفى ليلة الجريمة ، فتش تفتيشاً دقيقاً فلم توجد به آثار دماء .. لا فى ملابسه ، ولا فى يديه ، ولا فى وجهه ، ولا فى حذائه . ومع ذلك فما من شك أن القاتل تلوث بالدماء الغزيرة .

« لا يوجد أى دليل ضده إلا شكوك البوليس .

« ما مصلحته فى التظاهر بأن الباب استعصى على الفتح ؟ إنه لم يكن يعرف أن جونستون وزوجته سوف يقبلان عليه ؟

« أرجوكم ألا تنسوا حب والاس لزوجته . وانعدام كل باعث على الجريمة . ضعوا نصب أعينكم ما عرفتموه من علو أخلاقه ورقة ذوقه . ومع ذلك فهذا هو الرجل الذى يطلبون منكم أن تحكموا عليه بأنه قاتل . . »

* * *

وانتقل والاس من قفص الاتهام إلى مقعد الشهود ليوجه إليه محاميه بعض الأسئلة . . ثم يستجوبه ممثل الاتهام . وفى هذا الدور صمم والاس أن يكون دقيقاً فى إجاباته — فقد عودته دراساته العلمية أن يكون دقيقاً — تلك الدقة التى لم يستطع التخلص منها . حتى بعد أن تبين أن إجاباته الدقيقة تحور كلها ضده .

قال له محاميه : « أنا مضطر لتوجيه هذا السؤال إليك : هل وضعت يدك على زوجتك فى تلك الليلة ؟ »

كان هذا أهم سؤال فى المحاكمة . وكان المتوقع أن تكون إجابته : « لا مطلقاً » ؛ ولكن مثل هذه الإجابة لا تكون دقيقة كل الدقة فى نظره ، لذلك أجاب : « أظن أننى أثناء خروجى من الباب الخلفى ، ربت على كتفها كما أفعل كل مرة ، وقلت لها لن أتأخر إلا بالقدر الضرورى » .

وتبين على الفور أن رده لم يكن موفقاً . حتى محاميه امتعض وقال : « ليس ذلك ما عنيته . هل فعلت شيئاً لإيذائها ؟ »

عند ذلك قال : « لا . . لا . . بكل تأكيد ! »

وتساءل فى نفسه : هل سيحسب عليه أنه احتاج لأن يسأل مرتين

لينفى التهمة ؟ ! ولكن كيف يطلب منه ألا يقول الحقيقة ! فالواقع أنه وضع يده على زوجته فى تلك الليلة ، بتلك الطريقة ، فأجاب بما أجاب به احتراماً للحقيقة والدقة .

ولم تصادفه بعد ذلك أية صعوبة فى الرد على أسئلة محاميه . ولكن الصعوبة بدأت حين بدأ ممثل الاتهام يستجوبه . كان فى صوته هدوء وصداقة وعطف سرعان ما اختفت . كان عليه أن يحتاط كل الاحتياط لأن بعض تلك الأسئلة أريد بها خداعه ، والبعض الآخر أريد بها إغاظته وتهييج أعصابه .

س — « إننا نعلم أن مستر كوالترو حين تحدث فى التليفون مساء يوم الاثنين ، كان على مسافة بضع مئات من الياردات من منزلك ؟ »

ج — « لا أدرى »

س — « لقد سمعت أنه كان يتحدث من كابينة التليفون العمومى ؟ »

ج — « المظنون أنه تحدث من هناك ولكنى لا أعرف » .

س — « هل تشك فى أن المحادثة تمت من الكابينة ؟ »

ج — « أمام الأدلة المقدمة لا أشك » .

س — « حسناً . إذاً تستطيع أن تقول : نعم » .

هل من شك فى أن المقصود من هذا إثارة أعصابه ولكنه كان قد صمم (كما قال فيما بعد) ألا يسمح لأحد أن يثير غضبه ، وأنه يجب أن يقابل التهمة الحقيرة بكل ما يستطيعه من كرامة وضبط النفس .

ومن المتاعب الأخرى ، التى تعرض ، لها أن الأمور كانت تؤخذ « قفشاً » . وتوجه إليه أسئلة عن الصعوبة التى وجدها فى فتح الأبواب ، فيركز تفكيره على هذا الموضوع ليذكر بالدقة جميع التفاصيل ، وما صدر عنه من أقوال وإقرارات تتعلق بالأبواب والأكر . فإذا بسؤال يوجه إليه

عن المعطف ، فيضطر لتغيير تركيز أفكاره ، وينتقل من الأبواب إلى المعطف الذى لم يفكر فيه . . لقد كان حقًا امتحاناً عسيراً .

* * *

ومع هذا شعر بأنه مسيطر على الموقف ، وانتهت شهادته ، وأدلى كثيرون بأقوالهم ، فبينوا أنه إذا كان هو الذى قتل جوليا فلم يكن لديه من الوقت — لارتكاب تلك الجريمة والتخلص من آثارها ومن السلاح الذى استعمله — إلا ربع ساعة على الأكثر . . فبدأ الاطمئنان إلى النتيجة يدخل قلبه .

وعلق محاميه على أقوال الشهود بقوله :

« أود أن أضيف لكل ما سمعتموه أن تصرفاته ، كشاهد أقسم اليمين ، هى تصرفات رجل برىء كل البراءة .

« حضرات المحلفين . هل تدينونه بتهمة القتل ؟ هل تعتقلون أن مثله يقدم على مثل هذا العمل ؟

كيف يمكن ألا يشعر والاس بالاطمئنان الكامل ! لقد قاربت أزمته وقارب الكابوس الجاثم على صدره أن ينقشع . وسوف يقرر المحلفون — لا محالة — أنه غير مذنب ويردون له حريته .

* * *

ولكن ممثل الاتهام وقف يترافع من جديد :

« إننى مضطر أن أعرض عليكم — من جانب الاتهام — أن علاقة هذا المتهم بالحديث التليفونى صلة متينة أثبتتها الدلائل كلها . وأن الدليل على تصرفات هذا الرجل ، حين عاد إلى منزله ، ينهض قويًا على أنه لم يتصرف تصرف الرجل البرىء .

« هل تصدقون لحظة أنه لم يتمكن من فتح الباب ؟ هل تصدقون أنه لم يستطع فتح الباب الخلفى ؟ إن الوقائع تتحدث بنفسها ، لقد قال

فى أول الأمر إنه لم يستطع فتح الباب .. ولكن مستر جونستون وزوجته حضرا ، وعرض مستر جونستون أن يحضر مفتاح منزله إذا احتاج الأمر ، فإذا بالباب ينفتح .. بقدرة قادر » .

وأخذ والاس يتطلع إلى وجوه المحلفين ، فوجد أن الكلام الاتهام وقعاً قوياً عليهم . وأحس أن الاتهام يعرض وجهة نظره ، فى قوة وإقناع أكثر بكثير من الدفاع . وطريقة العرض هذه هى التى أثرت فى المحلفين وحولتهم نحو الإدانة . فلم يعودوا يعيرون بالا ، لأن الوقائع حرفت وحورت وجعلت تبدو « غريبة » و « مريبة » ، ولابد ابدا عليهم أنهم يقدرون أن الزوج الذى عاشر زوجته فى سعادة وانسجام ستة عشر عاماً لا يستطيع — ولا تطاوعه نفسه — على قتلها . ولكنهم وقعوا تحت سحر حجج الاتهام القوية .

وهكذا فقد والاس كل ثقته . لم يعد لديه أى أمل الآن . واعتقد أن حياته قد انتهت .

ولكن وقت إصدار المحلفين لقرارهم لم يأن بعد . إذ لابد أن يسبقه تلخيص من القاضى لكل ما جرى فى جلسات المحاكمة . ولكن أى فائدة تنتظر من تلخيص القاضى بعد أن قرّ قرار المحلفين !

* * *

قال القاضى :

« حضرات المحلفين . لقد انتهينا من جميع فصول هذه المحاكمة إلا الفصل الأخير .. إن هذه الجريمة — فيما أتصوره — لا مثيل لها فى تاريخ الجرائم .. » .

أخذ والاس يفكر فى أن كل ذلك كلام مردد لا أهمية له ولامعنى ، ولكنه دهش إذ وجد أن القاضى ، لا يكتفى بذكر الحوادث والحجج بل يقدم أدلة جديدة لم يتعرض لها الاتهام .. ولا الدفاع . قال :

« لقد قيل إن ما من أحد كان يستطيع أن يعرف — بطريق

لجزم — أن المتهم سيكون فى النادى فى تلك الليلة . ربما لم يكن أحد ستطيع أن يعرف بطريق الجزم ولكننا نعلم وجود لوحة معروضة ى المقهى .. عليها أسماء اللاعبين ، ويتضح منها أنه قد حدد للعب المتهم لك الليلة .. ويبدو لى وإن كان الأمر من اختصاصكم وحدكم أن فى لأدلة ما يشير إلى أن من الجائز أن يكون شخص آخر قد علم حركات المتهم المنتظرة ، واطمأن إلى أنه يستطيع أن يتصرف على أساس لمه ذلك » .

« وقدمت لكم أدلة عن الصوت الذى تحدث فى التليفون .. إن من صعب جدًّا على رجل مثل المستر بيتى ألا يتعرف على صوت المتهم مهما حاول إخفاءه — لو أن المتهم هو الذى حدثه فى التليفون » .

« أما عن المحادثة التى جرت بين المتهم ومستر بيتى بخصوص مطالبته ه بتحديد موعد المحادثة فلا يجوز أن تتخذ دليلا يدين المتهم » .

وكان المحلفون يصغون إلى القاضى باهتمام زائد يتبعونه بنظراتهم يصغون إليه بكلياتهم . فما من شك أن أقواله سيكون لها أثر كبير فى ارهم ، وعاد الأمل يراود والاس .

قال القاضى :

« حين يلفتون نظركم إلى بعض التناقضات فى أقوال المتهم . فإننى لا أملك إلا أن أقول . إن تصريحاته وأقواله كانت واضحة كل الوضوح ، وفى غاية الدقة .. ويبدو لى أن من الغريب أنها كانت بهذا التماسك وبتلك الدقة » .

« ويجب أن تدخلوا فى حسابكم ، ما إذا كان الوقت القصير الذى ترك له ، والذى قد لا يزيد على عشر دقائق ، يكفى المتهم لو أنه ارتكب جريمته .. لقد كان أمامه الكثير .. ومع ذلك ، فإنه ظهر بملابسه كاملة لا يبدو عليه أى أثر لانزعاج أو قلق ، وهو فى الترام .. فلابد أن يكون

قد تصرف بسرعة البرق .. وليس معنى ذلك أنه لم يرتكب الجريمة ، ولكن يجب أن تتريثوا فى تقدير ذلك كله » .

* * *

وكان والاس وهو يستمع إلى تلك الأقاول التى ظهر بها القاضى ، وكأنه محاميه — محام فصيح لبق مقنع — قد راوده الأمل وعادت الثقة إلى نفسه . ما من شك أن المحلفين لن يلتفتوا لحجج الاتهام وسوف يتبعون هذا الرأى الصريح الشريف .. أليس يقول لهم بصراحة : « إن المتهم برىء ؟ »

كيف يمكنهم أن يقولوا عكس ذلك ؟ كيف يقولون : « لا ، إننا وجدناه مذنباً ؟ »

أو لعلهم سيقولون ذلك؟؟؟

ونظر والاس من جديد إلى وجوه المحلفين يقرأ ما تخفيه عيونهم . وتصور أنهم لاشك قد تأثروا بأقوال القاضى واقتنعوا بها .. واستمر القاضى :

« من أى ناحية نظرتم إلى الأمر ، فإن من الصعب القول — وإن كان الأمر مرجعه كله إليكم — إن من الممكن توجيه الاتهام لشخص بذاته . هل تستطيعون الجزم بأن من المستحيل أن يكون شخص آخر قد ارتكب الجريمة ؟إذا لم تقتنعوا ، ولم يثبت أمامكم ، بما يكون اعتقادكم التام ، فإن واجبكم أن تقرروا أن المتهم غير مذنب . أما إذا كنتم قد اقتنعتم بإدانته ، فإن واجبكم أن تقرروا ما استخلصتموه من الأدلة التى قدمت إليكم طوال هذه الأيام الثلاثة .

« تدارسوا الموضوع إذاً ، وقرروا هل ترون أن المتهم مذنب أو غير مذنب ؟ »

* * *

وانسحب المحلفون إلى خلوتهم ليتداولوا فى قرارهم .

ويصف لنا والاس إحساساته فى تلك الفترة الحرجة فيقول :

« وقادنى الحراس ونزلوا بى إلى ممر أسفل المحكمة .. وبدأت لحظات من توتر الأعصاب . أسأل نفسى كلما مرت الدقائق من غير أن أدعى لسماع القرار : فيم يتناقش المحلفون ؟ ... ومرت أربعون دقيقة كأنها الدهر بطيئة .. قاتلة ثم دعيت ووقفت مرة أخرى فى قفص الاتهام .

« كيف أستطيع أن أعبر عن شعورى ؟ كل ما أذكره أن فكرة واحدة تسلطت على وأخذت على مشاعرى .. هى أن أحافظ على كرامتى أيًّا كان القرار . .

« وكانت أعصاب من بالقاعة متوترة مثلى ، وخيم عليها صمت رهيب . ثم التفت رئيس الجلسة وسألهم إن كانوا قد أجمعوا على قرارهم ، فكان رد رئيسهم : مذنب بالإجماع .

« وإلى هذه اللحظة لا أدرى ماذا قلت » .

(ولكن الثابت فى المحاضر أنه حين سئل إن كان لديه ما يقوله ليحول دون صدور حكم عليه بالإعدام ، قال : لست مذنباً ولا أريد أن أزيد على ذلك قولا) .

« كنت أرسل النظر فى فراغ لا نهائى ولا أرى شيئاً . ولم يعلق القاضى على قرار المحلفين ، ثم نطق فى صوت بطىء منخفض بحكم الإعدام . وختمه بقوله "وليرحمك الله !" وقال القسيس " آمين " بصوت بدا لى أكثر خفوتاً » .

« ودفعونى دفعاً سريعاً إلى الدرج الهابط ، ثم إلى زنزانة أسفل المحكمة ، وأحضروا لى عشائى فلم أستطع حتى مجرد النظر إليه .. وبعد نحو الساعة نقلونى إلى السجن ، وفى هذه المرة إلى الزنزانة المخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام . ووجدت نفسى محاطاً بعدد من رجال السجن ، ألبسونى الملابس الرمادية التى نص عليها القانون لأمثالى . وتغلبنى عند

ذلك يأس مرير . وفقدت لأول مرة — السيطرة على أعصابى . فغلبنى البكاء . . » .

« وظلت أعصابى متوترة من ليلة السبت التى صدر فيها الحكم إلى منتصف يوم الاثنين ، وجاءت الصدمة الكبرى حين زارنى محافظ السجن وأبلغنى أن يوم تنفيذ حكم الإعدام قد تحدد . . » .

« ومر أسبوعان . ثم سلمونى إعلاناً بتحديد يوم ١٨ مايو لنظر الاستئناف ، ونقلونى إلى سجن آخر » .

* * *

وكان القانون الجنائى الصادر فى عام ١٩٠٧ يبيح الاستئناف ضد حكم الإدانة . أو ضد تقدير العقوبة . واستئناف الإدانة يرتكز على سبب واحد هو أن يكون القاضى قد تحيف فى عرض ملخص القضية على المحلفين . وواضح أن تلك لم تكن حالة قضية والاس . فقد كان تلخيص القاضى فى صالح المتهم ، ولكن المحلفين تجاهلوه .

ومع ذلك فى القانون نص يبيح لمحكمة الاستئناف أن تقبل الاستئناف وتلغى الحكم إذا اعتبرت أن قرار المحلفين ، لا يستند على الأدلة المقدمة فى الدعوى . . بشرط أن تتبين المحكمة أن خطأ قضائياً قد وقع .

ومن النادر أن يستند إلى هذا النص فى جريمة قتل . وأندر من ذلك أن ينجح هذا الاستناد ، فلم يحدث منذ صدور القانون سنة ١٩٠٧ حتى سنة ١٩٣١ — أى فى مدى ربع قرن — أن قدم استئناف مستند إلى هذا النص .

* * *

ويروى لنا والاس فى مذاكراته التى ملأ فراغها بعد ذلك :

« ١٨ مايو — يوم استئنافى . ذهبت إلى المحكمة فى الساعة ١٠,٣٠ صباحاً . الحديد فى يدى . ولكن بملابسى العادية . فى الساعة ١١ مثلت

مام المحكمة . بعد خمس ساعات تأجلت القضية وأعادونى إلى السجن .

« ١٩ مايو — رفع رئيس القضاة الجلسة للمداولة بعد استماعهم لمرافعات الدفاع والاتهام . أخرجونى خارج القاعة إلى ممرات المحكمة حيث أقطعها ذهاباً وإياباً لمدة ساعات . تنتابنى فترات أمل ويأس . كانت أعصابى مشدودة لأقصى الحدود .

ثم عاد القضاة وأعادونى للقفص ... وساد القاعة صمت مهيب . لا من حركة تسمع . ولا ورقة تطوى .. وبعد فترة بدت لى دهراً أخذ قاضى القضاة يتلو حكمهم . لم أستطع متابعة كل ما قاله . كل ما أذكره أننى صممت على إخفاء شعورى . وبقيت بأعصاب متوترة لا أحس بما هو جار حولى إلا بشعورى بأن القاضى يطيء بطيء وصوته خافت كأنه يصدر من مكان بعيد بعيد . ثم سمعته يقول :

« قبلت المحكمة الاستئناف وألغت الحكم »

وانقلب سكون المحكمة فجأة إلى حركة . وبدأ هتاف من المقاعد سرعان ما اختفى .. وتبينت أننى كسبت المعركة وعدت حرًّا » .

ويشرح لنا والاس — فى مذكرات تالية — ما عاناه خلال هذه الأشهر الأربعة وما لحق به بعد حكم البراءة .

« لم أكن أتصور أن الحزن والقلق سيقضيان على .. لا سبيل لعودتها إلى .. وإلغاء الماضى ... حتى القبض على القاتل الحقيقى لن يفيدنى ولن يعيد السكينة إلى نفسى » .

وقد شق بشعور الوحدة هذا كما شق بما أحس به من نظرة الناس إليه . وكتب فى مذكراته :

« أظن أنه لا مفر لى من العدول عن العودة إلى عملى بليفربول نهائيًا . فسوء ظن الناس بى أقوى مما تصورت .. لقد وجدت جميع جيرانى ضدى .. » .

« قابلت جورج العجوز ، ظهر لى أن هذا الحيوان المتعجرف يتحاشى التحدث إلى .. أعتقد أن هذا الإحساس نحوى سوف يستمر ولن أستطيع أن أقضى عليه .. أعصابى كلها قد انهارت .. وتملكنى يأس قاتل .. وغابنى الحزن والدموع » .

ولم يمض على برءاته أقل من سنتين حتى ساءت حالته الصحية . وقضى نحبه شهيد خطأ قضائى . لم يخفف من أثره أن محكمة الاستئناف استطاعت أن تصححه ، وتنقذ المحكوم عليه من حبل المشنقة !!

الحكم بإعدام متهم بريء !

بمناسبة الشروع فى إدخال نظام المحلفين
فى مصر، «لا ينبغى أن يتأثر المحلفون بالعواطف
ولا أن يجرفهم الكلام المنمق ! » .

كانت الضحية الثانية — أو لعلها الأولى من حيث الزمن — فى مجموعة
بطاء القضاء الإنجليزى التى نستخرجها من أضابير المحاكمات . رجلاً
سمه « جورج كنط » .. كان يملك ويدير فى إحدى ضواحى مدينة
ندن محلا عاماً ومطعماً أطلق عليه اسم (قصر وندزور) .

وقد ازداد الإقبال على هذا المطعم بمناسبة تتويج الملكة « فكتوريا »
رب زفافها إلى الأمير « البيرت » ، (فنحن الآن فى عام ١٨٣٩ [١])
نان «جورج كنط» محبوباً من المترددين على محله . وسرعان ما اكتسب ثقة
لائه الجدد . وكان قد مضى على إنشاء مطعمه أكثر من عشر سنوات
الفه فيها النجاح . ووجد عمله ازدهاراً متواصلاً . فعاش سعيداً
ضياً عن نفسه وعن عمله ، ينظر إلى المستقبل فى ثقة واطمئنان . بالرغم
ن أن إدارة محل عام بمدينة لندن ، والاحتفاظ له بالسمعة الطيبة
يكن من الأمور الهينة فى تلك الأوقات .

من أجل ذلك حرص صاحبنا على أن يشرف بنفسه على كل كبيرة
صغيرة فى مطعمه . واكتفى بالاستعانة بزوجته ، وقد كانت أصلح

(١) تزوجت الملكة فيكتوريا فى شهر فبراير ١٨٤٠ .

امرأة تقوم بتلك المساعدة . فهى سيدة جميلة بشوشة تحسن استقبا
الزبائن ، تبتسم لكل قادم . ولكنها تعرف كيف توقف المهور من
عند حده — دون إغضابه — لأنها عفيفة لا تعرف التفريط فى نفسها

ولكن الإقبال الكبير على محله اضطره — على كره منه — أن يستعي
بفتاتين تستقبلان الزبائن وتقدمان لهم ما يطلبون . ولم يكن العثور ع
فتيات يصلحن لهذا العمل بالأمر السهل ، إذ كان لابد أن يكن وسيما
بشوشات ، من النوع الذى يجتذب الزبائن . ومثلهن يحتاج إلى مراق
شديدة ، لمنعهن من الاغتراف من درج الإيراد لحسابهن ، أو الإسا
إلى سمعة المحل بتصرفاتهن مع الزبائن . وجرب « كنط » عدداً كبيراً م
الفتيات . كان يضطر كثيراً — لسبب أو لآخر من هذه الأسباب — إ
الاستغناء عن خدماتهن .

وأخيراً وقع اختياره زوجته على فتاة جديدة اسمها « جين بولاند »
قالت عنها إنها فتاة تحترم نفسها ، ليست من النوع الخليع ، وأنه يمك
الاطمئنان إليها لأنها — برغم جمالها الذى يجلب الزبائن — لا يسهل
استهواؤها ، ولا يخشى أن تسيء إلى سمعة المحل .

وكان مطعم « وندزور » مكوناً من ثلاثة أدوار : الدور الأرضى
للمطعم ، والمحل العام . والدور الذى يليه يشغله « جورج كنط » وزوجة
وبجوار غرفتهما غرفة يقيم فيها — من وقت لآخر — شاب اسمه « جوزيف
إدواردز » ، ليس عميلا بل هو أشبه بصديق للعائلة . والدور الثالث .
وبه أكبر من غرفة ، أعد لسكنى العاملات بالمحل . ولذلك قرر جورج
كنط تخصيص غرفة لكل فتاة من الفتاتين اللتين عنده ، وهما « جين
بولاند » و« جين هوليتار » . قرر ذلك بناء على إلحاح زوجته التى وجدت
أن الغرف متوفرة ، فلا داعى لوضع الفتاتين فى غرفة واحدة . قرر

الحكم باعدام متهم بريء !

(ص : ٣١)

ذلك بالرغم من أنه كان يرى فى ذلك إسرافاً كبيراً .. وقال فى نفسه : « لكأن الفتاتين من سيدات المجتمع يجب تخصيص غرفة لكل واحدة منهما ! » .

وحدث أن لازمت زوجة « كنط » الفراش لمدة ثلاثة أيام بسبب وعكة طارئة . ووجد جورج كنط نفسه مضطرًّا لتولى أعمال نظافة البار مستعيناً بالفتاة جين بولاند ، وكانت فتاة جميلة حقًّا ، بديعة القوام ، وسيمة الوجه ، ذات ابتسامة جذابة . وبينما هما يعملان معاً ، وقعت عينه على عينها فابتسمت له ابتسامتها الجذابة ووجد نفسه — دون أن يشعر — يربت على خدها بيده بلطف ، فلم تنفر ولم تبد أى اعتراض .. لقد كان يكبرها بعشرين سنة ، ولم يتصور ولا خطر بباله أن مثله يغرى مثلها ، ولا هو أراد ذلك . فهى إذاً حركة استلطاف تحمل طابع الأبوة ، ولكن الفتاة قابلت حركته بابتسامة ثانية مغرية ، حركت فيه بعض الأطماع . فلماذا لا ينتهزها فرصة للترفيه عن نفسه ؟ وطالما أنه لا يريد بالفتاة شرًّا ولا ينتوى ارتكاب فاحشة فلا بأس من شىء من التسلية البريئة .

جرت هذه الأفكار سريعة فى عقله . والإنسان ضعيف أمام الإغراء والفرصة سانحة ، فهما الآن وحدهما ، والزوجة فى فراش المرض فإذا به يتجه إلى غرفة الاستقبال بعيداً عن الأنظار ويشير للفتاة بأن تلحق به ، فلا تخيب له أملا ، بل تتقدم نحوه وقد انفرجت شفتاها للمرة الثالثة عن تلك الابتسامة العريضة .. ابتسامة الفتاة المدركة لما هى مقبلة عليه . فلما اقتربت ، أحاط خصرها بذراعيه وحاول تقبيلها ، ولكنها قاومته !

* * *

لقد كان يعلم من تجاربه الماضيه فى مثل هذه المواقف ، أن كل فتاة

مهما كانت رغبتها ، تبدى تمنعاً ومقاومة ، لاعتقادها أنها إن لم تفعل ، ظن الرجل بها الظنون ، واعتبرها من النوع الرخيص المفرط فى عرضه .. ولكنه كان يعلم أيضاً أن هذه المقاومة ، لاتستمر طويلا خشية أن تضيع الفتاة فرصة الاستمتاع . أوكما قال شوقى :

فازورّ غضباناً ، وأعرض نافراً
حالٌ من الغيد الحسان عرفتُه

ولكن راع صاحبنا أن مقاومة هذه الفتاة استمرت طويلا حتى أفقدت المداعبات لذتها ، واعتقد أنه إذا وضع شفتيه على شفتيها ، وأحست بحرارة قبلاته ، انهارت مقاومتها .. فقد حدث له مثل ذلك فى مرات سابقة . ولكن محاولته هذه باءت بالفشل ، واستمرت الفتاة تقاوم ، ولا تستجيب لقبلاته ، كما لو كانت فتاة بريئة ، ليس لها خبرة بمثل هذه الأمور . واحتار ماذا يفعل ! إن الطريقة التى لبت بها دعوته لها إلى قاعة الاستقبال لا تتفق مع هذه المقاومة العنيفة .

ولما لم يجد فائدة من المحاولة ، تركها لحال سبيلها ، فلم تصرخ ، ولم تستنجد . ولكنها اكتفت بأن هددته بأنها ستبلغ زوجته بما حدث ، وأنذرته بأنها ستترك العمل ، وبدا أنها جادة فيما تقول .

ولكن الذى حدث بالفعل أنها لم تبلغ زوجته ، ولكنها بقيت طوال اليوم مقطبة الجبين غاضبة .

وقال الرجل فى نفسه : « كل ذلك من أجل لحظة مزاح برىء لا خطر وراءه ، ولا ضرر وقع منه . يا لها من فتاة غريبة .. »

وجاء المساء ، فإذا بالفتاة جين بولاند تحاول أن تغرق آلامها فى الشراب ، أو هكذا اعتقد هو وزجته لما بدا من عدم قدرتها على الوقوف على قدميها ، وكان ذلك عكس ما كان منتظراً منها . إذ أن أساس العمل فى البار ، ألا تشرب العاملة الخمر فى أثناء العمل ، ومن باب

أولى . ألا تفرط فى الشراب . فعنفها « كنط » وزوجته . ووصفاه بأنها سكيرة عربيدة مستهترة ، جلبت العار إلى محلهما .. ووجدا من الخير لسمعة « قصر وندزور » أن تترك العمل عندهما . فليس من مصلحتهم بقاء فتاة من هذا النوع فى خدمتهما .

وفى الساعة الثامنة مساء ازدادت حالة الفتاة سوءاً فلم يجد كنط بدًّا من إرسالها لغرفتها . ولما كان واضحاً أنها لا تستطيع الصعود إليها بمفردها . طلب إلى الفتاة الأخرى — جين هولتيار — أن تذهب معها . وكرر تعنيفه لها بأنها سكيرة عربيدة مستهترة !

* * *

وبعد مضى بعض الوقت ، أبدت الزوجة مخاوفها . من أن تكون حالة الفتاة جين بولاند ليست ناتجة عن إفراط فى الشراب . وقد تكون تشكو مرضاً .. وذهبت هى وزوجها للاطمئنان عليها . فلما دخلا غرفتها وجداها ملقاة على السرير بكامل ملابسها . وفى شبه ذهول . فأيقنا أن ذلك كله من أثر الخمر . وازداد امتعاضهما منها ومن سوء تصرفها !

وفى صباح الغد المبكر . بينما « كنط » وزوجته يرقدان فى سريرهما آمنين . سمعا ضرقاً على باب غرفتهما . فقامت الزوجة فزعة معتقدة أن الطارق جاء يخطرهما أن النار قد شبت فى الدار . ولحق بها زوجها إلى الباب فتبينا أن الطارق هى الفتاة جين بولاند . ووجداها تبكى وتهذى . ولم يستطيعا أن يتبينا ما الذى تقوله . وأخذت السيدة « كنط » تسكن من روعها فاستسلمت لها . ولكنها أبت أن يقترب جورج كنط منها . وأخذت تصيح فى وجهه « ابتعد عنى أيها الوغد .. ابتعد ! » .

ولما استطاعت مسز كنط أن تهدئ من روع الفتاة . اندفعت

جين بولاند فى البكاء. وقالت إن اعتداء وقع عليها فى أثناء نومها. وأن المعتدى هو جورج كنط !!

وطبعاً لم تعر مسز كنط هذا الاتهام أية أهمية — لأنه لا يعقل — لاستحالته . فقد كان زوجها بجوارها فى السرير طول الليل لم يبارحه ... وهى لم تنم نوماً عميقاً يسمح له بترك السرير دون أن تشعر . وفوق ذلك فالذى تعرفه من أمر زوجها أنه لا يقدم على مثل هذا العمل ... قد يربت على خد فتاة . . أو يمزح معها . . أما أن يقتحم غرفة فتاة ، ويعتدى عليها ؛ فليس ذلك طبعه ، ولا يتفق مع ما خبرته من خلقه .

لذلك لم تحمل الزوجة هذا الاتهام على محمل الجد . وقابلته بأن صبت جام غضبها على الفتاة المفترية ، وأمرتها بجمع حوائجها على الفور ومغادرة « قصر وندزور » . وهددتها بأنها لن تدفع لها باقى استحقاقها ولن تعطيها شهادة بحسن السلوك .

* * *

ومن هنا نستطيع أن نتصور الصدمة التى أصابت الزوجة . حين أقبل البوليس بعد أقل من ساعة ، ليقبض على الزوج بتهمة الاعتداء على الفتاة جين بولاند واغتصابها كرهاً !!

* * *

وذهب الجميع إلى مركز البوليس . أما جين بولاند فأصرت على اتهام جورج كنط بأنه اغتصبها كرهاً ، وأما جورج كنط فقد أنكر التهمة بشدة ، ومع ذلك احتجزه البوليس لمدة يومين .

ثم عرضت القضية على محكمة البوليس ، وهى محكمة إجراءات ، تقرر ما إذا كانت تعتبر الأدلة كافية لتوجيه الاتهام أم غير كافية ، فتقضى بأن لا وجه لإقامة الدعوى .

واستمعت المحكمة إلى أقوال جين بولاند ، فروت روايتها ..

وكان واضحاً من الأسئلة التى وجهتها لها المحكمة ، أن المحكمة غير مقتنعة بأقوالها . واطمأن جورج كنط إلى أنهم سيقررون حتماً أن لا وجه لإقامة الدعوى .

ولكن المحكمة — وهى محكمة إجراءات كما قلنا — وجدت نفسها أمام اتهام خطير ، عقوبته — حينذاك — الإعدام . فرأت أن تحيل المتهم إلى محكمة الجنايات ليحاكم أمام أنداده المحلفين ».

وأظهرت المحكمة مع ذلك اقتناعها ببراءة المتهم بأن أحالته — مفرجاً عنه — لحين المحاكمة .

* * *

لم يكن جورج كنط يتوقع أن تسير الأمور هذا السير .. إنه يوقن ببراءته .. ويبدو أن محكمة البوليس هى الأخرى مقتنعة ببراءته . فلماذا يبقى هذا الاتهام معلقاً فوق رأسه مدة أخرى ؟ لقد كان يتصور أن محكمة البوليس ستوجه إليه أسئلة — بعد سماعها أقوال الفتاة — وتمكنه من الإدلاء بروايته ، التى كان يستطيع أن يؤيدها بالاستشهاد بزوجته ، التى كانت ستشهد بأنه لم يفارق سريرها فى تلك الليلة المشئومة ، ولو تم ذلك لظهرت براءته وانكشف كذب الاتهام ، وخرج بريئاً .

ولكن الذى حدث ، أن أحداً لم يطلب منه الإدلاء بأقواله ، ولا دعيت زوجته للشهادة . وظلت الحقيقة مختفية بين صدريهما . ذلك أنه لم يكن ملماً بإجراءات التقاضى أمام محكمة البوليس التى يقتصر دورها على سؤال المتهم إن كان يعترف بالتهمة أو ينكرها . فإن أنكرها تركت له إبداء دفاعه أمام محكمة الجنايات .

وبقى جورج كنط متعجباً لإخلاء سبيله من غير أن يوضح الحقيقة للمحكمة ، ولكنه كان مطمئناً إلى أن الفرصة آتية وأنه سيبدى أقواله أمام المحكمة ، وتسمع شهادة زوجته .

لذلك استيقظ فى اليوم المحدد لمحاكمته مبكراً غير قلق — واتجه إلى سوق المدينة يسوق أمامه أربعة عجول ليبيعها — فقد كان من بعض عمله الاتجار فى الماشية — ثم تناول إفطاراً شهيًّا ، قبل أن يسلم نفسه — فى اطمئنان تام على نتيجة المحاكمة — إلى محكمة « أولد بايلى » الرهيبة.

* * *

وهناك ولأول مرة فوجئ جورج كنط بأنه ، باعتباره متهماً ، لن يسمح له بالإدلاء بأقواله . وبأن زوجته — بسبب صلة القرابة — لا يجوز لها أن تشهد له أو عليه !

وهكذا أصبح مصيره معلقاً على مدى الثقة التى يضعها المحلفون فى أقوال تلك الفتاة ، التى اتهمته بالباطل ، ولاتزال تصر على اتهامه .

* * *

وبدأت المحاكمة بسماع أقوال جين بولاند .

كان منظرها — وهى تدلى بشهادتها — يوحى بأنها فتاة بريئة تستحق الشفقة ، وشرحت للمحكمة — فى حياء صادق أو مصطنع — كيف ربت مخدومها على خدها . وكيف ذعرت بادئ الأمر ، ثم كيف استردت روعها ، حين وجدت أنه لم يعقب هذه الحركة أى فعل آخر ، فاعتقدت أنها حركة جاءت عفواً عن غير قصد . فلما استدعاها مخدومها إلى الصالون ، لبت دعوته بحكم واجبها ، معتقدة أنه يريد أن يكلفها بعمل. وقالت إنها دهشت — بل صعقت — حين وضع يده عليها وأحاط خصرها بذراعيه ، وقبلها رغماً عنها .. وبرغم ممانعتها .. وأنها قاومته بكل قوتها ، ثم أفلتت منه وأنقذت شرفها .. ثم رجاها ألا تذكر ماحدث لزوجته قائلا : « إن ما لم تره العين لا يشعر به القلب ».

وسألتها المحكمة عما فهمته من هذا الكلام ، فأجابت أنها لم تدرك ما الذى أراد أن يقوله ، ولكنها اعتقدت أنه ندم على ما فعل ، فلم

تخبر زوجته ، واكتفت بأن أبلغتها أنها قررت ترك العمل .

وذكرت للمحكمة أنها يتيمة الأبوين ، ولها أخ واحد هو « هنرى » جاء إلى قصر وندزور بعد ظهر ذلك اليوم ، وأنها لشدة قلقها وفزعها مما حدث لها لم تر بدًّا من الإفضاء إليه بمخاوفها ، وسألته رأيه فى ترك العمل دون انتظار مهلة الأسبوع التى يحتمها القانون قبل ترك العمل ، خشية أن يصيبها ضرر أفدح . ولكنه طمأنها ونصحها بالانتظار وقال لها إنه لا خوف عليها مادام مخدومها قد أظهر الندم .

وأنكرت أنها أفرطت فى الشراب أو أنها سكرت ! صحيح أنها أحست بدوار ، ولكن ذلك يحدث لها كثيراً لأنها تتعرض لنوبات . وقالت إنها اعتبرت مصاحبة زميلتها ، الآنسة هوليتار لها فى أثناء صعودها إلى غرفتها عطفاً كبيراً منها ، بعد أن اتهمها مخدومها — دون أن يدرك حالتها المرضية — أنها سكيرة عربيدة .

وقالت إنها عندما وصلت إلى غرفتها ، ألقت بنفسها على السرير بكامل ملابسها ، وأنها أفاقت بعد ذلك فوجدت شمعة مضاءة بالغرفة . ورأت على ضوئها مستر « كنط » يقف بجوار سريرها مرتدياً ملابسه العادية . وطبعاً فزعت أشد الفزع لوجود رجل بغرفة نومها ، الأمر الذى لم يسبق لها حدوثه طوال حياتها .. ثم وضع مخدومها يداً على فمها .. ومد يده الأخرى إلى جسمها !

وقالت إنها فزعت .. وقاومت .. وحاولت أن تصرخ ، ولكنها لم تستطع لأن يده كانت على فمها !

ثم غابت عن وعيها .. فلما أفاقت كانت الغرفة لاتزال مضاءة بتلك الشمعة .. ووجدت أن مستر « كنط » لايزال بالغرفة بجوار الباب من الداخل . وليس عليه من الملابس إلا قميص نومه .

وطبعاً أحست برعب قاتل وصاحت به: « لا تدخل . أيها الوغد لا تدخل ! » .

ولما ناقشتها المحكمة فى مدى مقاومتها له، قالت إنها لا تدرى كيف كانت تستطيع مقاومته إلا بالصراخ والاستغاثة بمن فى المنزل .. وكادت تفعل ذلك إلا أنه قال لها إنها سكرى .. وغادر الغرفة .

وقالت إنه بعد انصرافه اكتشفت أن ملابسها قد عبث بها ، وأحست بآلام فى عظام مقعدها . وتبينت ما حل بها من عار ، فاتجهت فوراً إلى غرفة السيدة « كنط » ولم تفكر فى الالتجاء إلى الآنسة هوليتار المقيمة معها بنفس الدور وبالغرفة المجاورة ، لأنها فتاة ، ولأنها اعتقدت أن السيدة المتزوجة أقدر على مساعدتها .. وطرقت باب غرفة مسز « كنط » تستأذن فى الدخول . ولما فتحت لها الباب روت لها ما حدث . ولكن مسز « كنط » ، وكان زوجها يقف بجوارها ، بدلا من أن تعطف عليها ، كذبتها .. فلما تساءلت على أى أساس كذبتها وهى لم تكن حاضرة ، لم تكتف بتكذيبها بل عنفتها ، وقالت لها إنها سكيرة عربيدة مسهترة وأمرتها بمغادرة المنزل على الفور !

فعادت إلى غرفتها . وجمعت حوائجها ، وكانت سعيدة لمغادرة المكان ، آسفة أنها لم تفعل ذلك قبل أن يحدث لها ما حدث .. واحتارت فيمن يحمل لها صندوق ملابسها ، فتقدم منها شاب من بين سكان المنزل يقيم بغرفة مجاورة لغرفة نوم صاحب المطعم وزوجته ، اسمه جوزيف إدواردز ، حمل لها الصندوق ، ورافقها إلى منزل أخيها .. وكان الصباح قد بزغ .

وجاء شهود تقدم بهم ممثل الاتهام ، فأيدوا — إلى حد ما — « جين » فى أقوالها .

شهد أخوها — هنرى بولاند — بأن أخته تتعرض لنوبات وأنها كثيراً

ما تفقد وعيها . وأنها أخبرته فى اليوم السابق بما وقع من مخدومها فى غرفة الاستقبال. وأنها كانت متهيجة محمرة العينين من أثر البكاء حين وصلت صباح الغد بصحبة جوزيف إدواردز .

وشهدت زوجة أخيها أنها فحصت ملابس جين بولاند الداخلية وتبينت فيها آثاراً واضحة الدلالة !

وجاء طبيب أكد أنها فقدت بكارتها من وقت قريب . !

* * *

وانتهت بهذا أدلة الاتهام .. لقد كان الأمر مؤلماً للغاية .. روت الفتاة ما قالت إنه حدث لها بعينين مسبلتين والخجل آخذ منها كل مأخذ . وطبيعى أن يكون لمثل هذا المنظر تأثير على المحلفين ؛ يستجلب عطفهم ؛ ويحملهم على صب جام غضبهم على الثوحش المفترس ، الذى لم يحترم براءة الفتاة الصغيرة !

ولولا أن جورج كان مطمئنًّا الاطمئنان كله لبراءته ، لعهد بالدفاع عن نفسه إلى محام من أقدر المحامين . ولو أنه فعل لوجدت جين بولاند نفسها أمام وابل من الأسئلة المحرجة يوجهها إليها محاميه ، تظهر ما فى روايتها من تفكك ، وما فى إجاباتها من ضعف ، وتفضح ما فى ادعائها من كذب .

لو كان لجورج محام لسألها : ما هو ماضى حياتها ؟ هل سبق لها العمل فى بار ؟ وإن كان قد سبق لها ، فهل وصلت إلى سن الثالثة والعشرين دون أن يقبلها رجل أو يحاول ؟ وما الذى حدا بها للذهاب فى اطمئنان إلى غرفة الاستقبال بعد حادث التربيت على خدها ؟ وإذا كانت قد حست أن محاولة تقبيلها بالقوة تعد انتهاكاً لها ، ورغبة فى الاعتداء عليها ، فلماذا رغبت فى البقاء أسبوعاً ، ولم تغادر قصر وندزور على الفور ؟ ولماذا لم تحاول حماية نفسها بتبليغ زوجة كنط ما حدث لها ؟ ولماذا

ين وجدت نفسها عاجزة عن الصراخ لأنه كان يضغط على فمها بيده تحاول عض تلك اليد ؟ ولماذا — إذا صح أنها كانت فى حالة هياج ، ين اكتشفت ما حل بها من عار — وقفت فى أدب تطرق باب غرفة نط ، فى حين أن طالب النجدة لا يتمسك بتلك الأدبيات ؟ وماذا قصد هوها حين قال إنها تتعرض لنوبات ؟ هل قصد أنها تفقد وعيها ؟ قصد أنها تتخيل خيالات ؟

ولكن لسوء حظ جورج ، لم يكن المحامى الذى وقع عليه اختياره ، دفاع عنه فى المستوى الذى تتطلبه قضية بهذه الخطورة . فقد اعتقد أنه در على الحصول على براءة موكله دون حاجة إلى استجواب المجنى عليها ؟ وضع البيض كله فى قفص واحد كما يقول الإنجليز ، فبنى دفاعه كله لى ورقة آمن بأنها رابحة وأنه لا سبيل إلى تجاهلها :

طلب سماع شهادة العاملة الأخرى جين هوليتار ، فشهدت بأنها عتقد أن زميلتها جين بولاند كانت سكرى فعلا حين أمرتها مسز « كنط » ترك البار والذهاب إلى غرفتها . وأنها متأكدة أن جين بولاند لم تكن لتقوى على الصعود إلى غرفتها بمفردها ، واستدلت على ذلك بأنها عجزت عن مجرد خلع ملابسها قبل أن تأوى إلى سريرها ، ورفضت أن تساعدها الشاهدة على خلعها . وقالت الشاهدة إنها تركت جين بولاند بالغرفة وأخذت معها الشمعة الوحيدة وتركت الغرفة مظلمة ، وكان ذلك فى الساعة الثامنة مساء .

واستطردت جين هوليتار تقول : إنها فى منتصف الليل — بعد أن تمت عملها بالبار ، وقبل أن تأوى إلى غرفتها — حملت الشمعة الوحيدة لتضىء الطريق لها ولمستر إدواردز ، صديق العائلة ، الذى صعد معها إلى الدور الذى تقيم فيه الفتاتان ، ليعود بعدها إلى الدور الذى يقيم فيه

صاحبا قصر وندزور . وأنها رأت واجباً عليها أن تطمئن على مس بولاند لترى إن كانت استطاعت أن تخلع ملابسها وتأوى إلى فراشها وكان مستر إدواردز لايزال معها لعدم وجود شمعة أخرى .. فتركته طبع خارج الغرفة ودخلت بمفردها ، فرأت جين بولاند ملقاة على السرير بكامل ملابسها ، واعتقدت أنها مستغرقة فى النوم ، فاكتفت بأن ألقت عليها غطاء ، وتركت الغرفة ، وسارت إلى غرفتها هى وناولت مستر إدواردز الشمعة عند باب غرفتها ليتبين طريقه للدور الأسفل حيث غرفة نومه . ورأته يتجه نحو السلم ، ولكنها ذكرت أنها لا تستطيع أن تقسم إن كان قد نزل إلى الدور الأسفل ، لأنها بطبيعة الحال دخلت غرفتها بغير إبطاء .

واستدعى الدفاع ورقته الرابحة التى علق عليها كل آماله فى كسب القضية ، واقتناص البراءة — جوزيف إدواردز .

طلب القاضى من إدواردز أن يقسم اليمين بأن يقول الصدق . كل الصدق . ولا شىء غير الصدق . ثم — قبل أن يوجه أحد إلى الشاهد أى سؤال — لفت القاضى نظره إلى أنه غير مطالب بالإجابة على أى سؤال يوجه إليه . ولكنه — إن أجاب — تحمل ما قد ينجم من مسئولية من إجابته ، ولما سئل عن عمله ، قال : إنه بدون عمل الآن ، ولكن مهنته الأصلية جزار .

سأله محامى الدفاع إن كان قد ذهب — فى ليلة الحادث — إلى إلى غرفة مس بولاند ، فأجاب ، بعد تردد ، « نعم .. ذهبت » !

وهنا أعاد القاضى تحذيره للشاهد بأنه غير ملزم بالرد إذا اعتقد أن فى الرد ما قد يدينه . فقال الشاهد إنه يدرك ذلك تمام الإدراك .

وقال إنه قد وقع نظره لأول مرة على مس بولاند عندما جاءت فى الصباح ، للعمل فى مطعم قصروندزور ، ولكنه لم يوجه إليها أى حديث ،

إكتفى بالنظر إليها ، ولم يظهر أى اهتمام بها .. ثم لم يلبث أن ابتسم لها .. قابلت ابتسامته بابتسامة منها !

وقال إنه وجدها جميلة جذابة للغاية ، وإنه اعتقد — حين ابتسمت له — أنها من النوع السهل اللين ، الذى لا يصعب الوصول إليه.

وفى ليلة الحادث — بعد أن تناول الشمعة من الآنسة هوليتار ليضىء طريقه — تعمد أن يتجه إلى السلم ليوهم الآنسة هوليتار أنه متجه إلى غرفته ثم انتظر حتى تأكد أنها دخلت إلى غرفتها ، فاتجه إلى غرفة الآنسة جين بولاند . ولم يجد صعوبة فى معرفة الغرفة لأنه رأى مس هوليتار وهى تدخلها ولمح مس بولاند مستلقية على سريرها . واستمر يقول : ودخلت غرفة نومها والشمعة فى يدى ، فوجدتها مستيقظة وفى كامل وعيها . فابتسمت لها وابتسمت لى ، وتقدمت نحوها فلم تنفر ، ووضعت يدى عليها فلم تمانع ، وجذبتها إلى فلم تقاوم ، وكانت راغبة ، بل إننى لم أصادف فى حياتى امرأة أكثر منها رغبة !

كانت هذه الشهادة هى الورقة الرابحة ، التى وضع فيها محامى جورج كنط كل آماله ، والتى اطمأن إنيها فلم يفكر فى أن يضيف إليها شيئاً . لقد ظنها قاطعة فى التدليل على براءة موكله . ولكنها — مع الأسف — لم تكن بالقوة التى تصورها المحامى. فقد سألت المحكمة الشاهد إدواردز عما حدث فى صباح اليوم التالى فقال : «صحبتها إلى منزل أخيها حاملا لها صندوق حوائجها ، ولم أشأ أن أذكرها بما حدث فى الليلة الماضية ، ولكنها تحدثت عما حدث بيننا ، وقالت إنها ستتخذ من ذلك وسيلة للانتقام من المستر « كنط » لأنه جرح كرامتها حين وصمها بالسكر والعربدة ، وأنها .. جلبت العار على محله » !

وتحدث عدد من الشهود عن أخلاق المتهم ، فوصفوه بالعفة ودماثة الطبع واستبعدوا أن يحدث منه ما نسبته إليه جين بولاند .

وبعد ذلك انتهى الدفاع .. ذلك أن القانون الإنجليزى — فى ذلك الوقت — لم يكن يسمح للمتهم أن يحلف اليمين ، ويقف موقف الشاهد ، ويدلى بروايته كاملة ، ثم أن يستجوبه محاميه ومحامى الاتهام ، فإذا صمد للاستجواب الأخير واقتنع المحلفون بصحة أقواله صدقوه وبرأوه كما هو حادث فى المحاكم الإنجليزية الآن — بل كان كل ما يستطيعه الدفاع — فى ذلك الوقت — أن يتقدم بالأدلة والشهود ولا يسمح له بالتعليق عليها ، فأمر التعليق كان متروكاً لممثل الاتهام وللقاضى فى تلخيصه .

* * *

واستغل ممثل الاتهام تلك الثغرة التى يبيحها له القانون ، فى الإضعاف من قيمة شهادة جوزيف إدواردز ، فقال : إنه لا يمكن الاطمئنان إلى أقواله ، وإن روايته مصطنعة ، إذ لو كانت صحيحة لتقدم من بادئ الأمر وأدلى بها للبوليس . ترى لماذا لم يفعل ؟ هل أراد أن يستجمع شجاعته ليدلى بشهادة قد تدينه ؟ إن الأمر لم يكن يتطلب أية شجاعة فقد أحتاط لنفسه وزعم أن الفتاة كانت مقبلة عليه ، راغبة فيما حدث لها ، وبذلك وضع نفسه فى إطار من القانون لا يمكن معه توجيه أى اتهام إليه أو يكون قد تأخر فى توليف رواية من نسج خياله أو من نسج دفاع المتهم ؟

واستطرد ممثل الاتهام يقول :

« ما هى الحقيقة إذاً ؟ الحقيقة التى لم تعد تحتمل جدلاً هى أن المتهم هتك عرض الفتاة المسكينة بالطريقة التى روتها لنا . أما هذا الشاهد إدواردز — الذى يعرف المتهم ، والذى يهمه أمره ، والمدين له ولاشك — فإنما يتقدم لكم برواية مكذوبة مفضوحة ، باطلة من أساسها يريد بها دون أن يلحقه منها أى ضرر — أن ينقذ صديقه من الجريمة البشعة التى أقدم عليها .

« إن أوراق القضية جميعها أمامكم ، ووقائعها كلها معروضة عليكم ، وليس فيها ما يشير — من قريب أو بعيد — إلى أن هذه الفتاة الصغيرة الطاهرة ، مستهترة مفرطة فى عرضها كما يزعم إدواردز .. فالتهمة التى وجهها لها إدواردز بادية البطلان ، يطل التلفيق من جميع جوانبها ، ولا يمكن لعقول المحلفين الراجحة أن تعيرها أى اهتمام » .

إن المحلفين أفراد من الشعب عاديون ، ليست لهم خبرة قانونية ، ولا يزنون الأدلة دائماً بميزان دقيق ، وهم ككل إنسان يتأثرون بعواطفهم ، ومنظر فتاة شابة جميلة ، تتحدث فى خجل عن ضرر بليغ حاق بها ، من شأنه أن يؤثر فى أفراد الشعب ، فلكل واحد منهم بنت أو أخت قد يقع بها ما قع لهذه الفتاة ، وهم — لعدم ممارستهم الحكم فى القضايا كالقضاة المحترفين — تسحرهم الأقوال البليغة ، ويجرفهم الكلام المنمق .

وقد صدقوا الرواية المؤثرة التى ادعتها جين بولاند ، ولم يعيروا إدوردز أية أهمية ، وأصدروا قرارهم بالإدانة . والقاضى الإنجليزى مقيد بقرار المحلفين — مهما كان رأيه فيه — فلم يسعه إلا أن ينطق بالحكم الذى يقرره القانون فى حالة الإدانة .... وهو الإعدام شنقاً !

ورفع المتهم يديه إلى السماء ، يشهدها على ذلك الظلم الذى وقع عليه وصاح بكل قوته « أنا برىء » .. وأدرك جميع من كانوا فى قاعة الجلسة صدق نبرات المتهم وهو يهتف ببراءته واستقبلوا الحكم بالاستنكار الشديد !

* * *

وخرج الناس من القاعة يتحدثون عن إحساسهم بالظلم الذى وقع . وخرج مراسلو الصحف إلى دور صحفهم يعلقون على هذا الحكم بالقدر الذى تبيحه القوانين ، ولكنهم لم يستطيعوا إلا أن يذكروا أثره على الجمهور وهكذا سرى بين الناس إحساس قوى بضرورة تقويم هذا الخطأ القضائى

الفاحش . وأخذوا يتساءلون « هل يجوز إعدام رجل لعمل أقر رجل آخر أنه هو الذى ارتكبه ؟ » .

وقالت الصحف :

« وعلى فرض أن اعتراف إدواردز مشكوك فى صحته ، فأين الدليل القاطع على إدانة « كنط » ؟ إن الطبيب لم يقل إلا أن الفتاة فقدت بكارتها من وقت قريب .. ولكنه لم يحدد أن ذلك وقع حتماً فى الليلة المشئومة . وتلوث ملابس الفتاة الذى شهدت به زوجة أخيها — قد يرجع إلى هتك عرضها أو لأسباب أخرى ! وسواء قالت لإدواردز إنها تنتظر مما حدث لها سبيلا للانتقام من « كنط » أو لم تقل فقد يكون لها دوافع أخرى تنسب الاعتداء عليها لشخص أو لآخر . وأوحى لها حادث الصالون أن تتهم « كنط » .

« ومع ذلك فليس فى رواية الفتاة نفسها دليل مباشر على أن كنط اعتدى عليها ، فإن كل ما قالته إنه دخل غرفتها ووضع يده عليها . وهذا إذا صح يكون شروعاً ولا تكون عقوبته الإعدام .

والرأى العام حساس لكل ظلم يقع على أحد الأفراد . لذلك هاج هياجاً شديداً . ورفع استئناف عن الحكم . رفعه عمدة لندن . وقد كان حاضراً المحاكمة . وقال العمدة إن الأدلة — فى رأيه — غير كافية وأنه . لو أنه كان أحد المحلفين لما وافق على قرار الإدانة .

وكان لهذا الرأى قوته . واتجه أفراد من الشعب — استناداً إلى هذا الرأى — إلى وزير الداخلية وطلبوا منه إنقاذ العدالة . فدرس ملف الدعوى . وحصلوا منه على اعتراف بوجود بعض الشكوك فى صحة الحكم . ولكن نظام المحلفين جزء أساسى فى نصوص الدستور الإنجليزى . ووزراء الداخلية يتحرجون من المساس بالأحكام لما لها من قدسية . وأمام ذلك لم يسع وزير الداخلية أن يلغى الحكم . ولكنه اضطر — إرضاء للرأى

العام — إلى تعديل العقوبة ، وبدل عقوبة الإعدام كان النفى إلى ما وراء البحار .

وهكذا وجد « جورج كنط » نفسه — وهو الذى اعترف رسميا بوجود شك فى إدانته — منفيًا من بلاده ، وكل الذى استطاعته القوى المؤمنة ببراءته أن تفعله هو أنها أنقذت رقبته من حبل المشنقة !

ضحية الاضطهاد العنصرى !

تحامل البوليس الإنجليزى ، وغباء وتحيز المحلفين ، يكشفه « آرثركونان دويل » خالق شخصية « شرلوك هولمز » !

لا يستطيع القاضى أن يحكم بين الناس بالعدل ، وأن يؤدى رسالة القضاء السامية ، إلا إذا تجرد — حين يجلس على منصة القضاء — من أدران البغض والتحامل والهوى.

وفى قضيتنا هذه ، لعب الاضطهاد العنصرى دوراً كريهاً ، وكان ضحيته شاب يدعى « جورج ايدالجى » من أم بيضاء وأب — قسيس إنجليكانى — من جماعة الفارسيين الهنود المعروفين بالبارسى.

أقام الأب القسيس فى قرية (ويرلى) ، وتزوج من فتاة بيضاء ، وورث عن أبيها إيراد كنيسة القرية ، وأقام فى أبرشيتها ، وولد له بالقرية ابنة وولد هو جورج هذا.

ولم تكن حياة القسيس سهلة هينة . فقد كان سكان القرية متعصبين ، ينظرون إلى من يختلف بشرة عنهم ، نظرة احتقار ، حتى إن كثيرين منهم كانوا يسمون القسيس — الذى يحتم عليهم دينهم احترامه — بالزنجى.

ولم تكن هذه النظرات ولا هذا التحقير تغيب عن القسيس ، ولكنه كان يتجاهلها ، ويؤدى واجباته الدينية ، وكأن شيئاً لم يكن ، وبراءة الكهنوت فى عينيه !

فى هذا الجو الخانق ولد جورج ، وعاش بين أقرانه منبوذاً لا يشركونه فى ألعابهم ، حتى بلغ الثانية عشرة من العمر فى عام ١٨٨٨ وعندها بدأت المتاعب الحقيقية فى صورة خطابات غفل من التوقيع كانت ترسل إلى القسيس ، حشوها السباب والتهديد ، وتخط بعض عباراتها على أسوار الأبرشية ..

وشكا القسيس الأمر إلى البوليس . فاستدعى فتاة اسمها «إليزابيث فوستر» كانت تعمل بالأبرشية وقدمها للمحاكمة ، فحكم عليها بأن تتعهد بتحسين سلوكها ، ووضعها تحت المراقبة . ولم يرق هذا الحكم — على ما فيه من تساهل — غالبية سكان القرية الذين كانوا يعطفون على الفتاة ولا يستنكرون فعلتها .. بل لعلهم كانوا يعتقدون أن ما فعلته هو الصواب .

وتوقفت الخطابات المجهولة لمدة أربع سنوات ، ثم بدأ سيل منها يرد تباعاً إلى الأبرشية ، تدل محتوياتها على أن كاتبها محيط بكل ما يجرى داخل الأبرشية ، ويعرف حادث الفتاة إليزابيث الذى ذكرناه .. وقوى الشك فى أن تلك الفتاة هى التى تكتبها ، أو أنها من عمل صديق لها ولكن تحقيقاً دقيقاً لم يجر معها .

* * *

ولقد دلت محتويات تلك الخطابات على حقد كامن فى نفس مرسلها ، ليس فقط ضد القسيس ، ولكن كذلك ضد زوجته (اللعينة) على حد تعبير كاتب الخطابات — وابنته (الشنيعة) ، وكانت تهاجم بصفة خاصة ابنه جورج الذى لم يكن قد جاوز السادسة عشرة من عمره . فقد جاء فى واحد منها :

« أقسم بالله إننى سوف أقتل « جورج ايدالجى » فى أقرب وقت . فالشىء الوحيد الذى أحرص عليه فى هذه الدنيا هو الانتقام . الانتقام.

الانتقام اللذيذ الذى أتوق له .. وعندها أحس بالسعادة ولو فى جهنم! ».

وجاء فى خطاب آخر :

« ليسخطنى الله إن لم أقتل "جورج ايدالجى" »! وكان القسيس يتعرض فى الوقت ذاته إلى فصول سخيفة ومضايقات ، من النوع الذى يدخل السرور على مرتكبها ، والضيق على ضحيتها . من أمثال ذلك ، أنه كانت تصل إلى الأبرشية عربات محملة ببضائع لم يطلبها القسيس ولا زوجته ، وكانت تنشر إعلانات فى الصحف تقول : إن الأبرشية معروضة للبيع أو للإيجار ، أو تقول : إن القسيس مستعد لأن يجمع بين طالبى الزواج من السيدات والرجال !

ولم يحمل القسيس هذه المضايقات على محمل الجد ، واعتبرها ضريبة يجب أن يتحملها فى سبيل أداء رسالته الدينية . وقد تحمل الكثير من أمثالها ، ووطن النفس على أنه طالما أن الاضطهاد موجه إلى شخصه فسوف لا يضيق به ، ذلك فضلا عن إحساسه بأنه لافائدة ترجى من تبليغ البوليس ، لأنه — فى تحامله — لن يبذل أى جهد لاستجلاء الحقيقة .

ولكن حادثاً جديداً — لا يحمل فى ظاهره معنى الاضطهاد — جعل القسيس يلجأ إلى البوليس . فقد عثر أمام باب الأبرشية على مفتاح كبير — من نوع غريب — اعتقد القسيس أن صاحبه قد فقده ، ورأى أن من واجبه أن يسلمه إلى البوليس .

وتبين أن المفتاح يخص مدرسة « وولسال » التى تبعد ستة أميال عن الأبرشية . فما الذى جاء به إلى عتبة الأبرشية ؟؟

احتار البوليس فى حل ذلك اللغز . وذهب المفتش « كامبل » إلى رئيس البوليس يعرض عليه حيرته وملف التحقيق . وكان رئيس البوليس من ذلك الصنف المتعجرف من الإنجليز — الذين أقاموا الإمبراطورية — والذين يعتقدون أن الإنجليز يمتازون عن بقية شعوب

العالم، وأن الجنس الأبيض سيد الأجناس، فى حين تنقسم الأجناس الأخرى الذين يسمونهم بالملونين ، إلى سود (عبيد) أو صفر !! فهو لذلك كان يعتبر وجود القس ايدالجى فى قرية إنجليزية ، وكنيسة وأبرشية إنجليزية ، أمراً مؤسفاً لا يحسن السكوت عليه .

لذلك ، ما كاد المفتش كامبل يعرض عليه الموضوع ، حتى استغرب أن يتحير المفتش ، فى حل مشكلة واضحة الحل ، لا تحتاج إلا لقليل من الذكاء لاكتشاف ما غمض من أمرها . فهذه إحدى حيل تلاميذ المدارس ، وخاصة إذا كان ناظرهم من النوع المتساهل الذى لا يلجأ إلى الشدة ولا يكثر من استعمال العصا والفلقة..

تلميذ إذاً هو الذى أخذ المفتاح من المدرسة وتركه على عتبة الأبرشية فمن يكون ؟؟

إن فى القرية تلميذاً غريب الأطوار ، من أولئك الملونين الملاعين ، الذين لا يتورعون عن ارتكاب مثل هذه الصبيانيات ، وليست فيهم شجاعة التلاميذ الإنجليز البيض الذين لا يترددون فى الاعتراف بعملهم ويتحملون تبعته . فالأمر لا يحتاج لكثير من الذكاء لمعرفة الفاعل .

واعترض المفتش كامبل على هذا الاستنتاج ، وقال إن « جورج ايدالجى » لم يسبق له أن ذهب إلى مدرسة وولسال . ولكن رئيسه نحى هذا الاعتراض بسهولة ، وقال : إن هذا دليل جديد على أنه الفاعل .. لأن مثله لا يقدم على سرقة مفتاح مدرسته ، بل يبحث عن مدرسة أخرى. فالأمر إذاً فى غاية الوضوح بل يكاد يكون بديهياً .

والآن وقد قطع رئيس البوليس بأن جورج ايدالجى هو مرتكب الحادث ، رأى أنها قضية لا تدخل فى اختصاص البوليس — ولا تحتمل أن تعرض على القضاء — وأنه يكفى أن يتولى الأب تأديب ابنه حتى لا يعود لمثلها .

وكتب رئيس البوليس إلى القس بما ارتآه.

واستجوب الأب ابنه فتبين أن لا علاقة لجورج بحكاية المفتاح ، وأنه لم يذهب إلى وولسال خلال الشهر الماضى. فكتب إلى رئيس البوليس بذلك . ولكن كيف يثق رئيس البوليس — المتعجرف المتحيز — بتوكيدات « زنجى » ملعون فى مثل هذا الموضوع ، أو أى موضوع آخر . فتناول قلمه وبغير تردد — كتب إلى القس يقول له : « إننى لن أصدق ما يدعيه ابنك من أنه برىء فى موضوع المفتاح ». وهكذا قلبت الأوضاع فالمتهم مذنب حتى تثبت براءته ، وهو كاذب لا يصدق إنكاره . إنه مذنب لأنه ملون .

ولولا عجرفة رئيس البوليس وغباؤه ، لقارن بين سرقة المفتاح ، وبعض ألفاظ خطابات التهديد ، ولاستطاع بقليل من الاستنتاج غير المتحيز ، إلى معرفة الحقيقة ، فقد جاء فى خطاب منها : « قبل نهاية هذا العام ستجد ابنك إما فى القبر أو فاقد الشرف طول حياته .. أتظن أننا — إن أردنا — نعجز عن تقليد خط ابنك ؟ »

* * *

لندع جانباً استنتاجات رئيس البوليس ، وندرس جورج ايدالجى دون تحامل ، لمعرفة إن كان يمكن أن يرتكب مثل هذا الحادث ؟

كان جورج ضعيف البنية ، وكان هذا يحول دون اشتراكه فى ألعاب التلاميذ الآخرين . وكان فوق ذلك قصير النظر — حتى مع استعمال نظارات سميكة — لدرجة أنه كان يجد صعوبة فى رؤية الأشياء على بعد بضعة سنتيمترات ، ولذلك كانت الألعاب الرياضية جميعها — الكرة والجرى والملاكمة — محرمة عليه . وبحكم ابتعاده عن الألعاب ، اتجه بكليته إلى القراءة ، إذ كان يتمكن فى إضاءة جيدة من القراءة . وانكبابه على القراءة وابتعاده عن مشاركة التلاميذ ألعابهم ، جعله خجولا

منطوياً على نفسه مرهف الأعصاب متحفظاً . وزاد ذلك فى مقاطعة التلاميذ البيض له ، خاصة وهو متفوق عليهم من ناحية الدراسة وتحصيل العلم .

ومع ذلك فما كان يصح أن يوصف جورج بأنه « زنجى » . فلم يكن أسود البشرة بل أسمرها . ولكن ضعف نظره سبب له بروزاً فى عينيه ، وزوغاناً فى نظراته وعجزاً عن النظر فى وجه محدثه ، وقد حمل هذا الناس على إساءة الظن به .

ونجح جورج فى دراسته وتفوق ، وأتم تعليمه وأصبح وكيل قضايا ، أى محامياً غير مترافع ، وذلك بالرغم من الصعوبات والمتاعب التى لاقاها فى حياته . فقد كانت حياته فيما بين السادسة عشرة والتاسعة عشرة فى توتر حاد مقيم ، إذ كان كلما جاء ساعى البريد إلى الأبرشية ، توقعت أسرته وصول خطاب تهديد أو سباب . ولم يكن من السهل إخفاء ذلك عليه . فكان أول سؤال يوجهه عند عودته آخر النهار : « هل من جديد ؟ » . وبعد ذلك لم يعد فى حاجة إلى توجيه أى سؤال ، فقد كان يرى الإجابة فى وجه والديه وأخته .

ولغير ما سبب معروف اختفت خطابات التهديد ما بين عامى ١٨٩٦ و١٩٠٢ ، وساد الأبرشية الهدوء والسلام . وكان القس ايدالجى — برغم إحساسه بكراهية السكان له — يبذل جهده فى العناية بشئونهم ، وتتفرغ زوجته لعمل الخير والخدمة الاجتماعية ، وإن اعتقد السكان أنها — وهى من أصل أبيض — قد جلبت على نفسها العار بزواجها من ملون .

واشترك جورج فى مكتب وكلاء قضايا فى برمنجهام ، فكان ينتقل يومياً من القرية إلى برمنجهام .

ثم بدأت المتاعب .

عثر — فى زراعة قريبة من الأبرشية — على حصان مبقور البطن . كان ذلك فى أوائل شهر فبراير . ثم توالت الحوادث — من هذا القبيل —

بواقع حادثين أو ثلاثة فى الشهر . وكانت جميع هذه الحوادث ترتكب بالليل .

وأمثال هذه الحوادث — فى الريف — بالغة الخطورة لما فيها من اعتداء على الماشية ، التى هى جزء أساسى من ثروة المزارعين . لذلك اهتم السكان ، واهتم البوليس ، بالبحث عن المجنون — أو المجرم الطليق — الذى أقلق حياة القرية الهادئة ، وارتكب هذه الحوادث الغريبة .

والحوادث الغريبة تنسب إلى أشخاص غريبى الأطوار . وليس فى القرية من الأشخاص غريبى الأطوار إلا القس ايدالجى وأسرته .

بدأ حديث القرية همساً . ثم أصبح كلاماً على المكشوف . استبعد الناس أن يكون القسيس الذى أقام بينهم ثلاثين عاماً ، دون أن تبدو منه أية إساءة — وإن كان من الملونين — أن يصاب فجأة بالجنون أو ينقلب مجرماً . ولكن ماذا عن ابنه ؟ إنه إنسان غريب الأطوار بعينيه البارزتين وبشرته السمراء وتجنبه النظر إلى محدثيه ! إنه — ولاشك — الشخص الذى يمكن أن يقدم على مثل هذا العمل القذر .

وبدأ سيل جديد من الخطابات المجهولة . لم توجه هذه المرة للقس بل أغلبها إلى جورج ، وبعضها إلى البوليس ، فيها اتهام صريح لجورج بأنه المسئول عن حوادث بقر الماشية . وفى بعضها إنكار لمسئوليته ولكنه صيغ بطريقة تؤكد إدانته .

فقد جاء فى خطاب بتوقيع : « محب للعدالة » . موجه إلى جورج الذى قدمه إلى البوليس .

« إننى لا أعرفك ولكننى قابلتك بضع مرات بالقطار . ولا أظننى أحبك لو عرفتك ؛ لأننى أكره الملونين . ولكننى أومن بحق كل إنسان فى الحصول على معاملة عادلة ، ولذلك أكتب إليك لاعتقادى أن لا شأن لك بالجرائم الفظيعة التى يتحدث عنها الجميع . إنهم يقولون

إنك ولاشك مرتكبها لأنهم جميعاً يكرهونك .. فإذا قتل حصان آخر فسيقول الكل إنك القاتل .. فخير لك أن تبتعد عن القرية لتبعد الشك عنك » .

وجاءت فى تذكرة بريد إشارة إلى محاكمة اليزابث فوستر ، التى كان قد مضى عليها خمس عشرة سنة .

« لماذا لا تعود إلى لعبتك القديمة : الكتابة على الجدران ؟ » .

وفى تذكرة بريد أخرى مرسلة إلى المفتش كامبل بتوقيع « عليم بما هنالك » ، وتذاكر عديدة تحمل توقيعات منسوبة لأشخاص معروفين فى القرية ، اتهام صريح له . ولكن أغلب من نسبت إليهم تلك التوقيعات ، أنكروها وأثبتوا أنها مزورة .

وزاد الأمر تعقيداً أن أحد رجال البوليس تسلم خطاباً — غفلا من التوقيع — مكتوباً على مطبوعات المكتب الذى يعمل فيه جورج .

* * *

لم يكن جورج بالشخص الساذج ، فقد درس القانون وتوفر على الاطلاع . لذلك أدرك أن كل هذه المحاولات ترمى إلى الإضرار به ، وأنها قد تنجح فى النهاية ، لذلك قرر أن يتعاون مع البوليس قدر طاقته وصار يسلم لهم — أولا بأول — كل خطاب يصل إليه . فإذا به يتبين أن خطواته كلها معروفة لمضطهديه فقد جاء فى خطاب وصله :

« إنك تتوهم أنك حاذق . وأنا أقول لك إنك لست جنتلماناً وإلا لما وضعت البوليس فى أعقابى . إنك بتصرفك هذا قد أثبت للناس أنك قاتل الخيل ، لأنهم تبينوا أنك لا تؤتمن » .

ومن سوء حظ جورج أن رئيس البوليس — ذلك الشخص المتعجرف المتحيز المتحامل على الملونين ، الذى اتهمه قبل إحدى عشرة سنة بسرقة المفتاح — كان لايزال على رأس البوليس .

لقد قطع أن ذلك الغلام « الزنجى » مخادع وكاذب ولص ، وهو فى السادسة عشرة من عمره ، فلا موضع للشك فى أنه — وقد بلغ الثامنة والعشرين — قد تحول من مجرم صغير إلى مجرم كبير يطوف بالغيطا يبقر بطون الماشية .

* * *

ومع أنه لم تظهر أية أدلة تسمح بتوجيه الاتهام إلى جورج أو القبض عليه ، فإن رئيس البوليس اعتبر كلام الناس دليلا ، وعلل ذلك بأن الريفيين صادقو الحس ؛ وأحكامهم على أخلاق من يعيشون بين ظهرانيهم قلما تخطئ . وما دام الناس يتهمون جورج ، فلابد من البحث عن أدلة لهذا الاتهام .

وفى هذا المجال بدأت عبقرية (؟) رئيس البوليس تظهر .

هذه السلسلة من الخطابات المجهولة تثبت أن جورج رجل مخادع ، كتبها وأرسل عدداً منها لنفسه لتقوم دليلا على براءته . إنها حيلة ماهرة ولكنها لا تفوت على فطنة رئيس بوليس ذكى مجرب . لذلك فقد وقع جورج فى الخطأ الذى يقع فيه دائماً المجرم ، بأن كتب خطاباً على مطبوعات المكتب الذى يعمل فيه . إنه سوف يقول طبعاً . إن أحداً زار المكتب وسرق ورقة من أوراقه . ولكن من الذى يصدق « زنجيًّا » ملعوناً ديدنه الكذب .

* * *

لم يعد هناك محل للانتظار ، ولم يبق إلا ضبط المجرم متلبساً . كان ذلك يتطلب تضحية حصان آخر ، وهو أمر مؤسف ، ولكن لا حيلة لرئيس البوليس فى ذلك . استعان رئيس البوليس بالكونستبلات من القرى المجاورة ، ورتب دوريات منتظمة تطوف بالغيطان ، ووضع رقابة مشددة على الأبرشية طوال الليل لتتبع جورج حين يخرج فى ظلام الليل

لارتكاب جريمته وضبطه ويداه ملوثتان بالدماء !

وأصدر الأمر فى الوقت نفسه للمفتش كامبل ، لمقابلة جورج ومعرفة ما يقوله عن الخطابات المجهولة ، معتقداً أن جورج — تحت وهم أن حيلته نجحت — قد تفلت منه معلومات تدينه ، خصوصاً وأن البوليس لن يحذره بأن كل كلمة سيقولها قد تؤخذ دليلا عليه لأنه حتى تلك اللحظة لم توجه إليه أية تهمة ، بل هو ضحية ، وقد قدم الخطابات للبوليس بمحض رضائه .

وقال المفتش كامبل لجورج إنه سيوجه إليه بعض أسئلة روتينية ، للحصول على مساعدته فى التعرف على مرسلى الخطابات المجهولة . وسر ذلك جورج لأنه اعتقد أن البوليس بدأ يهتم بموضوع الخطابات ، وأبدى استعداده لتقديم أية مساعدة . وسأل فى أثناء الحديث عن الخطوات التى سيتخذها البوليس لوضع حد لتلك الجرائم . فلما ذكر له المفتش موضوع الدوريات — وأخفى عنه الرقابة الموضوعة على الأبرشية — أبدى حماساً للفكرة ، وإن كان شك كثيراً فى نجاح تلك الدوريات ، فى منطقة مترامية الأطراف ، تكثر فيها الخيول طليقة منتشرة فى جميع أنحائها .

ورأت عبقرية رئيس البوليس أن هذا دليل جديد على إجرام جورج لأنه أراد أن يعرف إجراءات البوليس ليتجنبها !

ولم تعد أحاديث القرويين تتجه إلا لموضوع قتل الخيول ، حتى إنهم لم يعودوا يتحدثون عن المحصول الذى هو شغلهم الشاغل ، بل اقتصرت أحاديثهم على التساؤل عن قرب القبض على جورج ، ووضع حد لجرائمه القذرة . وقويت عقيدتهم حتى إن جورج تغيب يومين عن القرية مع أخته لعمل خاص فأيقنوا أنه قد قبض عليه .

وبمجرد عودة جورج إلى القرية سمع بإشاعة القبض عليه فازداد

قلقه ، وأحس بالخطر . فنشر إعلاناً فى صحيفة محلية يعرض مكافأة لمن يقدم أية معلومات تؤدى إلى إدانة مروجى الإشاعات ضده أو مرسلى الخطابات المجهولة .

ولم يوصل الإعلان إلى نتيجة ، ولكن رئيس البوليس اتخذ منه دليلا على خبث جورج وسوء طويته !

* *

وفى ليلة ١٧ أغسطس ، برغم دوريات البوليس المشددة على الأبرشية ، عثر على حصان مبقور على بعد نصف ميل من الأبرشية ... كما عثر على آثار أقدام انتهت عند الطريق العام واختفت فوق أرضه الصخرية .. صحيح أن الطريق العام قد يوصل إلى الأبرشية . ولكن رئيس البوليس وجد فى ذلك الدليل الواضح معتقداً أن جورج هو صاحب آثار الأقدام فى طريق عودته إلى الأبرشية بعد ارتكاب جريمته . وأصدر أمره بالسير فى إجراءات الاتهام .

وبينما كان جورج فى مكتبه فى برمنجهام بعلم البوليس ، ذهب المفتش كامبل إلى الأبرشية وبدأ فى سؤال القس ايدالجى وزوجته . فلم يمانعا فى الرد على جميع أسئلته ، إذ لم يكن لديهما ما يخفيانه . ولم يعترضا على قيام البوليس بتفتيش الأبرشية .

وعثر المفتش فى غرفة النوم التى يشغلها جورج مع والده ، على جاكتة لجورج على أحد أكمامها بقعتان صغيرتان فى حجم المليم ، فحرزها وتهلل وجهه بإحساس الانتصار ، لاعتقاده أنها من دماء حصان . وازداد تهلل وجهه حين تبين وجود بعض شعيرات آمن بأنها من شعر الخيل . كما وجد فى الغرفة عدداً من أمواس الحلاقة التى يستعملها الحلاقون — إذ لم تكن شفرات الحلاقة قد اخترعت بعد — ملوثة بالدماء . كما عثر على زوج حذاء مبلل اعتبره دليلا على السير به فى الغيطان !

وهكذا تحول الشك إلى يقين .. وحمل المفتش كامبل نفسه إلى برمنجهام ليستجوب جورج ، بعد أن آمن بعبقرية رئيس البوليس ، وبأنه قد وضع اليد على أدلة الإدانة المفحمة .. وترك الجاكتة لفحصها بدقة فى المعمل الجنائى .

لم يعترض جورج على الاستجواب . وأجاب أنه لم يرتد البدلة فى الليلة السابقة . وأنه يعلم بأن بكمها بقعاً من زمن بعيد . أما عن الشعر فإن كان شعر خيل فلعله ارتكز على بوابة يكون قد ارتكز عليها حصان ، أما التلوث الموجود على الأمواس فقديم .

ولم يقنع هذا التعليل المفتش كامبل ، فحذر جورج ووجه إليه التهمة . وقال جورج إنه يستطيع أن يبين كيف أمضى الليلة السابقة ، فقد خرج من المنزل فى نحو الساعة الثامنة لإصلاح حذائه . وعاد إلى المنزل فى حوالى الساعة التاسعة والنصف . ولم يغادره إلا فى الصباح للذهاب إلى عمله . وأضاف أن ما هو حاصل لا يدهشه فقد كان يتوقعه من وقت طويل .

واعتقد البوليس أنه قد أثبت التهمة بما فيه الكفاية . ولكن الصعوبات بدأت تظهر ، وهنا ظهر أثر الاضطهاد العنصرى واضحاً جلياً .

لقد ثبت — من تقرير الطب الشرعى — أن الجريمة وقعت ما بين الحادية عشرة مساء والسادسة والنصف صباحاً ، وعلى الأرجح فى الثانية والنصف صباحاً . وكانت الأبرشية طوال تلك الليلة تحت رقابة شديدة من البوليس .. فكيف استطاع جورج أن يترك الأبرشية ويعود إليها من غير أن تقع عليه أعين الرقباء ؟

أجاب رئيس البوليس أن جورج ماكر وخبيث ، وقد عاش طوال حياته فى الأبرشية ، فلابد أنه عرف كيف يتسلل منها ويعود إليها دون أن يراه أحد . وفضلا عن ذلك فقد كانت الليلة حالكة الظلام ، وقد انقضى على الرقابة أكثر من شهر ، فلا يستبعد أن يكون أحد رجال

البوليس قد تراخى فى رقابته !

* * *

وكان من حسن حظ جورج أنه ينام مع والده فى غرفة واحدة منذ أكثر من عشرين سنة . وسبب ذلك أن أخته قد مرضت مرضاً شديداً وهى طفلة فترك لها والدها غرفته — لتعنى بها والدتها — وانتقل هو إلى غرفة ابنه . فلما شفيت استمر هذا التقسيم بين غرفتى النوم وأن القس اعتاد — بسبب خطابات التهديد — أن يغلق باب غرفة النوم من الداخل كلما آوى إلى فراشه . وقد شهد الوالد ، وكان فيما يبدو مستعداً لأن يقسم اليمين ، أن ابنه عاد من الخارج فى التاسعة والنصف مساء ، ولم يغادر المنزل حتى الصباح ، وأمضى الليلة معه فى غرفة مغلقة بالمفتاح

ولكن البوليس — أو بالأصح رئيس البوليس نحى تلك الشهادة جانباً بقوله ، إنه مادام المفتاح قد ترك فى الباب ، فإن ذلك يمكن جورج من التسلل وارتكاب الحادث والعودة إلى الغرفة دون أن يحس به والده !

وثبت أن الشعر الذى عثر عليه على جاكتة جورج ليس شعر الحصان المقتول ، وحمل ذلك البوليس على البحث عن أدلة جديدة فاتجه تفكيره إلى مقارنة آثار حذاء المتهم (فإن جورج لم يعد فى نظر البوليس إلا متهماً يجب إثبات التهمة عليه بكل وسيلة) . ومع أن البوليس لم يكن قد صنع قالباً لآثار الأقدام ، وأن أقداماً كثيرة مرت من نفس المكان فأزالت آثار الأقدام القديمة ، ولكن حذاء جورج ترك آثاراً تشبه واحداً من تلك الآثار ، فأقنع ذلك المفتش كامبل ، وأحس بأنه يستطيع — دون أن يحنث فى يمينه — وقاتل الله الغرض — أن يؤكد أنه تعرف على أقدام المتهم .

وجاء تقرير الطبيب البيطرى يؤكد أن بقر الحصان لم يحدث من موسى حلاقة كالتى عثر عليها فى غرفة جورج ، بل من سكين قصيرة ذات حدين . وبحث البوليس جاداً فى الأبرشية وحديقتها ، ونبش الأرض

لعله يعثر على تلك السكين . فلما لم يجد قال رئيس البوليس —قاتله الله— ن جورج طبعاً يعرف بالأبرشية أمكنة لإخفاء السكين لا يستطيع لبوليس الوصول إليها .

وهكذا كانت كل شبهة تسقط فى يد البوليس يعللها — لا بأن جورج برىء — بل بأنه ماكر خبيث .

ومع أن جميع تلك الشبهات لا ترقى إلى مرتبة الدليل .. بل ولا القرينة فإن البوليس قدم القضية إلى محكمة الاتهام ، واستصدر قراراً من محلفين متحاملين ، بتقديم جورج إلى المحاكمة . ومع ذلك فإنهم — برغم تحاملهم — قرروا الإفراج عن المتهم بكفالة لحين المحاكمة .

ولكن جورج أدهش المحلفين والأهالى ، بأن رفض دفع الكفالة ، وفضل البقاء فى السجن حتى يحين موعد محاكمته بعد ثلاثة أشهر .

لم يفعل جورج ذلك اعتباطاً ولا حبًّا فى البقاء فى السجن ، ولكنه دبر الأمر بتعقل وروية . إن التهمة الموجهة إليه — والتى قدم للمحاكمة من جلها — هى أنه قتل الحصان الأخير . ولكن هذه الجريمة واحدة من سلسلة جرائم . وجورج يعرف أنه برىء منها . فإذا قتل حصان آخر وهو هين جدران السجون كان ذلك دليل براءته . أما إذا كان مفرجاً عنه ، نسبت إليه الجريمة الجديدة .

ولكنه لم يقدر حماس رئيس البوليس فى إدانته حق قدره . فقد صح ما توقعه من قتل حصان آخر . ولكن رئيس البوليس لم يعتبر ذلك دليلا له بل دليلا عليه . فقد راح يتلمس مخرجاً من دليل البراءة هذا .. فوجده فى خطاب من خطابات التهديد المرسلة للقس إذ جاء فيه « هل تحسب أننا لا نستطيع تقليد خط ابنك إن أردنا » . واعتبر رئيس البوليس أن صيغة الجمع هذه تدل على أن لجو رج شريكاً ، وأن وجود ذلك الشريك يفسر الكثير من جرائم القتل فى أثناء وجود جورج فى السجن . بل

إن هذا يفسر — فى نظر رئيس البوليس — رفض جورج الخروج من السجن بكفالة .. إن جورج يحسب نفسه داهية . ولكن « على مين ؟ إن مثل هذه الحيل لا تنطلى على عبقرية رئيس البوليس .

* * *

وعرضت قضية جورج لا على محكمة الجنايات التى يرأسها أحد قضاة المحكمة العليا ، بل على محكمة يرأسها أحد كبار الملاك ، الذى مهما تحلى بالإنصاف ، لا يستطيع التخلص من تأثير مصلحته ، ومصلحة الريف الذى يضار بهذا النوع من الإجرام . وكان ذلك شأن المحلفين من أهالى المنطقة ، فجلهم — إن لم يكونوا كلهم — من المتحاملين على من يسمونهم بالملونين .

وكانت هناك تهمة إضافية — حققها البوليس — خاصة بخطاب تهديد أرسل إلى مفتش البوليس روبنسون ، ولكن صحيفة الاتهام خلت من أية إشارة إليها . ومع ذلك لعبت دوراً كبيراً فى أثناء المحاكمة ، إذ قرر أحد خبراء الخطوط أن أغلب خطابات التهديد التى قدمت كانت بخط جورج ، وأن كاتبها كان محتاطاً جداً فى تغيير طريقته فى الكتابة .. كما استغل الاتهام ، أن أحد تلك الخطابات ، مكتوب على مطبوعات المكتب الذى يعمل فيه المتهم .

ثم تكلم الاتهام طويلا عن البقع التى لوثت جاكتة المتهم والحذاء المبتل وآثار الأقدام .

والواقع أن كل ما استطاع الاتهام أن يتقدم به لم يعد شبهات لا تصل إلى مرتبة القرائن ، وهى أبعد ما تكون عن الأدلة .

ووقف جورج المسكين فى منصة الشهود — إذ كان القانون قد تغير فى إنجلترا وأباح للمتهم — إن أراد — أن يقسم اليمين ويشهد لصالح نفسه . وقف جورج لا يكاد لقصر نظره يرى القاضى ولا المحلفين

ولا الشهود – زائغ البصر بارز العينين – وسط أناس يكرهونه لمجرد أنه يختلف عنهم بشرة ، قد وطدوا العزم من البداية على أنه جاء ليكذب فى أقواله .

أكد جورج – بعد أن أقسم اليمين – أنه كان يرتدى بدلة زرقاء فى ليلة الحادث – غير التى عثر عليها البوليس ، وأنه ترك المنزل فى الساعة الثامنة وعاد فى التاسعة والنصف . وتناول عشاءه وآوى إلى فراشه ولم يترك غرفته إلا صباح الغد بعد أن تناول إفطاره للذهاب إلى محل عمله .

وشهدت أخته وخادمة الأبرشية على صحة أقواله . وأيده أبوه وأكد أنه يستحيل عليه أن يغادر الغرفة دون أن يشعر به فقد أغلق باب غرفة النوم بنفسه .

وأكثر من ذلك ثبت أن جورج كان بمدينة أخرى فى الوقت الذى ألقى فى صندوق البريد فى مدينتين بعيدتين خطابا تهديد .

إن واحدة من هذه الشهادات كانت تكفى لإضعاف الاتهام . ولكن التحامل العنصرى كان أقوى من ذلك كله . فالقاضى يلخص القضية بما يدين جورج . والمحلفون لا يطلبون إلا دقائق معدودة ليعودوا بقرار الإدانة .

وصدر الحكم بالسجن تسع سنين .

واعتزل القس ايدالجى الكنيسة والأبرشية ، ولم يعد فى مقدوره أن يصمد للاضطهاد ، بعد أن تحمله أكثر من ربع قرن .

وبينما جورج فى السجن استمرت حوادث قتل الماشية لمدة ستة أشهر ثم توقفت فجأة .

وحدث هذا التوقف بعد القبض على شخص يدعى فارينجتون مباشرة والحكم عليه فى قضية أخرى .

ولكن البوليس — فى تحامله — اعتقد أن تلك مجرد مصادفة . ولم يتخذ أية خطوات إيجابية .

وكان يمكن أن يستمر جورج فى السجن لحين انتهاء مدة العقوبة المحكوم بها عليه لولا أن الظلم الذى وقع عليه ، أقلق ضمائر بعض الناس من الإنجليز الذين اعتقدوا أن القضاة والمحلفين ، تجاهلوا الحقيقة وأدانوا « جورج » ظلماً وعدواناً .

* * *

تقدم أحد رؤساء القضاة السابقين بعريضة موقع عليها من عشرة آلاف شخص ، منهم المحامون ورجال القضاء وأساتذة الجامعات ومشاهير الكتاب ، وبدأوا يكتبون المقالات فى الصحف يظهرون فيها نقط الضعف فى الحكم .

وعهدت جريدة « الديلى تلغراف » إلى الكاتب المشهور . آرثر كونان دويل — خالق شخصية « شرلوك هولمز » — بإجراء تحقيق جديد للحادث . وقد قام « شرلوك هولمز » بهذا التحقيق بدقته المعروفة واستنتاجاته التى لا تخطئ ، ونشر تقريره فى عددين متتاليين من الجريدة . ثم فى كتاب وانتهى فى تقريره — ليس فقط — إلى أن التهمة لم تثبت على جورج . بل إنه برىء منها كل البراءة .

وأيد قوله بتقرير من طبيب عيون أكد فيه أن بعينى جورج قصر نظر شديداً وانحرافاً نظرياً ، يجعل من الصعب عليه فى جميع الأوقات . أن يرى الأشياء على مسافة تزيد على بضع بوصات . ويعجزه — فى الغسق — أن يتبين طريقه إلا فى الأمكنة المعروفة له .

وجاء فى التقرير أنه كان يتعين على جورج ليرتكب الجرائم المنسوبة إليه — فى الأمكنة التى وقعت فيها — أن يخترق فى ظلام الليل ، قضبان السكك الحديدية وأراضى زراعية . وأن يرى حصاناً أدكن

الجلد فى ظلام دامس . وهو أمر مستحيل . فحالة نظره — وحدها — قاطعة ببراءته .

ولكن « شرلوك هولمز » لم يقف عند هذا الحد فقال فى تقريره : إننا إذا افترضنا أن رجل الدين المحترم . اشترك مع ابنه وتركه فى الليل يتسلل لارتكاب جريمة حمقاء لا يقرها دين ولا خلق .. فأين كان البوليس الذى حاصر الأبرشية وكيف لم يره فى ذهابه وإيابه ؟

ولم يقف التقرير عند هذا الحد بل وضع أصبعه على الفاعل الحقيقى وإن لم يسمه علناً على صفحات الجريدة أو فى كتابه — ولكنه أبلغ أمره للبوليس ، وأشار إليه تلميحاً واضحاً ، فقال :

« إنه أحد سكان القرية ، مجرم اعتاد الإجرام . تمرن على قتل الماشية فى سلخانة المدينة . وتخصص فى الجزارة ، غير متكامل القوى العقلية — سبق له كتابة خطابات مجهولة — وعرض ذات مرة سكيناً ذات حدين . قال إن قتل الحيوانات يتم بمثلها . هذا فضلا عن أن قتل الماشية . وإرسال الخطابات المجهولة . كان دائماً يتوقف فى الفترات التى يكون فيها ذلك الرجل محبوساً أو غائباً » .

وختم تقريره بقوله : « إن اتهام جورج والحكم عليه كان خطأ فاحشاً ، سببه تحامل البوليس وغباء وتحيز المحلفين » .

ولم يكن وزير الداخلية يستطيع أن يقف مكتوف الأيدى أمام هذا الاتهام الصريح لرجال البوليس ، ولا كان يستطيع أن يترك « جورج » فى السجن بعد ظهور براءته .

فلجأ إلى الحلول الوسطى التى اعتاد الإنجليز اللجوء إليها فى مثل هذه الأحوال .

فقد نشر النائب العام تقريراً قال فيه إنه لا وجه لمحاكمة الشخص الذى اتهمه كونان دويل .

وأعلن وزير الداخلية أن البوليس كان حسن النية . واستنكر الاتهامات التى وجهها له كونان دويل ، ثم رأى — أمام الشكوك الكثيرة التى أحاطت بصحة الحكم — إلغاء العقوبة وإخلاء سبيل المتهم .

وأعادت نقابة وكلاء القضايا إلى الجدول اسم جورج ايدالجى بعد أن كانت قد شطبته .

ولكن جورج لم يعوض عما تحمله من ظلم واضطهاد وعذاب .

فقرر ألا يعود إلى القرية التى سامته كل ذلك الهوان .

المجرم : الزوج أم العشيق ؟

« لا يمنعك قضاء قضيت فيه بالأمس عن
الرجوع عنه إذا تبين لك وجه الحق »
عن « عمر بن الخطاب »

نحن فى مدينة (بوردو) بفرنسا ، وفى قاعة محكمة الجنايات ، وقد بدأ المحلفون يدخلون قاعة الجلسة — من غرفة مداولتهم التى طالت عشر ساعات — ووقف فى قفص الاتهام « ليسنييه فرانسوا ديوديتيه » وهو مدرس إلزامى فى قرية (فيو) ، وأبوه ، ينتظران قرار المحلفين ، بقلوب واجفة ..

فقد كانت التهمة الموجهة إليهما أنهما قتلا « جاى » عجوز القرية وسرقا محتويات كشكه الصغير وأشعلا النار فيه . وكانا يعلمان — الأب والابن — أنهما بريئان من تلك التهمة الفظيعة ، ولكن أهل القرية جميعاً تألبوا عليهما وأطلقوا ألسنتهم فيهما — بالحق وبالباطل — ولم يكن لهما من أمل إلا أن ينصفهما المحلفون بعد دفاع قوى من محاميهما الشاب النابه .

ونطق المحلفون بقرارهم فإذا به يبرئ الأب من التهم الثلاث . ويبرئ الابن من تهمة السرقة ولكنه يدينه فى التهمتين الأخريين : القتل والحريق العمد . وأصدر القاضى حكمه على الابن بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وبهت الابن ولم يدر ما يقول . ولكن أباه أمسك بيده ، وضغط

عليها وقال له : « لا تيئس ولا تيأس يا بنى ، فإن أباك باق لك » .

ولم تكن تلك الكلمات من الأب لمجرد التشجيع ، فقد كان مؤمناً — كما كان محاميهما مؤمناً — ببراءة الابن . وبأن وراء الإشاعات التى أوجدت ظروف الإدانة يداً خفية لها مصلحة فى تضليل العدالة . وأن الزمن كفيل بأن يرفع الستار عن تلك اليد الخفية !

* * *

وبدأ الأب سعيه بأن راح يجمع الأقاويل من هنا ومن هناك . ويدونها . ويقدمها للمحامى الذى أخذ من جانبه يعد ملفاً بكل ما يستجد .. وقضيا فى ذلك ست سنوات ، أمضاها الابن المسكين فى عذاب السجن والمنى ، مكبلا بالحديد فى يديه ورجليه — وهى الطريقة التى كانت متبعة مع المحكوم عليهم فى تلك الأيام : — وكان التراسل بينه وبين أبيه ، وبينه وبين محاميه ، مستمراً . ومضت السنوات الخمس بين اليأس والرجاء ، إلى أن وجد المحامى أن الوقت قد حان ليطلب تحقيقاً جديداً . .

ولكن لنشرح القضية أولا لنبين أن العدالة قد تبطئ وقد تخطئ ، ولكنها فى الكثير الغالب تكشف خطأها ، وتحاول إصلاحه !

* * *

كان ليسنييه الأب ، وهو من قرية (شماديل) ، صاحب ثراء ، لذلك حرص على أن يمنح ابنه أكبر قسط ممكن من التعليم ، فحصل الابن على إجازة التدريس من دار المعلمين وهو لما يبلغ العشرين من عمره . ولكن ثروة الأب تبددت فى نزاعات قضائية طال أمدها ، مما اضطر الابن إلى أن يقبل وظيفة مدرس إلزامى فى قرية صغيرة اسمها (فيو) انتقل إليها مع أبويه وأخته ليعيشوا جميعاً من إيراد الابن المحدود الذى لم يكن يتجاوز ألفاً ومائتى فرنك فى العام .

وأقبل الابن على عمله بانشراح ، فقد كان محبًّا لعمله من جهة ، ولحاجته الملحة ليقوم بأود أسرته . وتضاعف عدد تلاميذ القرية وطاب له العيش فيها حتى فكر فى أن يتخذ منها مقره الدائم . ولذلك فاوض « جاى » العجوز فى أن يبيعه قطعة الأرض التى يملكها وما فوقها من كشك متواضع مقابل إيراد شهرى يدفعه له مدى الحياة هو ستة فرنكات فى الشهر . فقد كانت الحياة فى تلك الأيام لا تتطلب أكثر من ذلك للطعام والكساء .

وكانت صفقة موفقة للجانبين : فجاى العجوز ، وقد تخطى الخامسة والسبعين لم يعد فى حاجة لأن يعمل ويشقى ليكسب قوت يومه . وكان صاحبنا ليسنييه يأمل فى ألا يضطر لدفع الإيراد الشهرى طويلا لأنه لم يكن يتصور أن يعيش جاى العجوز لأكثر من بضع سنين تعد على أصابع اليد الواحدة .

ولم يدخل فى حسابه أن يموت جاى بعد أقل من شهرين من عقد تلك الصفقة ، وأن يحصل صاحبنا على الأرض والحديقة التى حولها بثمن بخس : اثنى عشر فرنكا ! .. ولو أن جاى العجوز قد مات ميتة طبيعية لحسد الناس المشترى واعتبروه محظوظاً . ولكن جاى وجد مقتولا وقد أكلت النار الأخضر واليابس من منزله . ولم يعرف الفاعل . وأثبت التحقيق أن جاى لم يمت مختنقاً من دخان الحريق ولا محترقاً .. ولكنه قتل بضربة قوية من آلة راضة على رأسه !

هناك إذاً فاعل !! .. وهناك إذاً باعث !

ولم يتبين فى بادئ الأمر حدوث سرقة ، ولكن ليسنييه تطوع وذكر أن جاى كان يملك أربعة براميل نبيذ — وأيده أهل القرية — فاتجه التفكير إلى أن يكون الباعث هو السرقة .

ولكن المحقق اعتقد أن هذا الباعث غير معقول ، لأن أربعة براميل

نبيذ — والنبيذ فى تلك الأيام لم يكن ثمنه يزيد كثيراً على ثمن الماء — لا تبعث على ارتكاب جريمة قتل . وتابع المحقق إجراءاته فتبين أنه لم يكن للقتيل أعداء ولا أقارب ولا أصدقاء . فقد كان « مقطوعاً من شجرة » كما يقولون .

* * *

وسرت فى القرية إشاعة — والإشاعات فى القرى هى تسلية أهلها ، ولا أحد يدرى كيف تبدأ ولا متى تنتهى ! — كانت الإشاعة تقول إن شخصاً واحداً هو الذى استفاد من موت « جاى » العجوز ، ذلك هو الذى استولى على تركته مقابل فرنكات معدودة !

لكن تصرفات ليسنييه لم تكن تدعو لإساءة الظن به . فقد هرع كغيره لإطفاء الحريق ، وساعد فى نقل الأثاث وإنقاذ بعضه من الحريق كما عثر على مبلغ ضئيل (عشرة فرنكات) فى أحد الأدراج فسلمها للمحقق . بل كان هو الذى لفت الأنظار إلى وجود براميل النبيذ !

* * *

ورأى المحقق — إزاء تلك الإشاعة — أن ينبش فى حياة ليسنييه الخاصة ليتبين قيمة تلك الإشاعة ، فلم يجد فيها أية متاعب من النوع الذى قد يحمل صاحبها على ارتكاب جريمة قتل . حقاً إنه اكتشف أن له علاقة غير بريئة بامرأة متزوجة من صاحب حانة اسمه « لسبانى » وطردها زوجها من منزله بسبب تلك العلاقة وبسبب سوء سلوكها وردها لعصمته بعد حادث الحريق .

ولما سئل عمدة المدينة عما يعرفه عن ليسنييه قال إنه غارق فى الديون لقمة رأسه — أو لشوشته حسب التعبير الدارج — فهو مدين بمائتى فرنك لزيد من الناس ، ومائة أخرى لعمرو . كما تقدم شهود يتبرعون بترديد أقوال سمعوها عن ليسنييه تدور كلها حول ثقته بأنه عقد صفقة رابحة

وأنه لن يدفع أقساط الإيراد العام إلا لفترة قصيرة ، وأولوا تلك الأقوال بأنها تدل على نية مبيتة عنده للتخلص من جاى !

ورأى المحقق أن سن جاى المتقدمة وسوء حالته الصحية تبرر مثل تلك الأقوال من جانب ليسنييه ، وأنها لا تصلح دليل اتهام .

* * *

وفجأة تبرع رجل دين له مكانته — ولشهادته تقديرها — بأقوال رجحت كفة الاتهام ! .. قال القسيس فى شهادته : « لقد تبينت أن أهل القرية جميعهم كانوا يشيرون بأصابع الاتهام إلى ليسنييه لأنه الوحيد الذى يجنى فائدة من هذه الجريمة . وكنت ألومهم على ذلك وأقول إن ذلك لا يصلح دليلا . ولكننى وقد أقسمت اليمين على أن أقول الحقيقة ، وكل الحقيقة ، أرى لزاماً على أن أروى لكم أننى زرت المرحوم "جاى" المسكين قبل موته ، فوجدته مريضاً مهموماً . وحاولت أن أسرى عنه وهنأته على بيعه لمنزله بإيراد شهرى مدى الحياة ، لما فى ذلك من راحة له ، ولكنه لم يظهر أى اغتباط ، بل على العكس شكا لى من سوء معاملة ليسنييه له . وقال لى إنه كثيراً ما يتركه يتضور جوعاً ، وطلب منى أن أتحدث فى شأنه مع ليسنييه .. وقابلت بعد ذلك ليسنييه وحدثته فى أمر جاى فتضجر وقال إن جاى يضايقه كثيراً ويريد منه أن يكون بجواره على الدوام . ولقد كان حديثى مع ليسنييه فى كثير من الحيطة لما أعلمه عنه من أنه يعتقد أنه على صواب دائماً ولا يقبل أية ملاحظة ولا أية نصيحة .

وأضاف القسيس دون أن يوجه إليه المحقق أى سؤال : « إذا كنت تريد أن تعرف حقيقة شعورى نحو تصرفات ليسنييه يوم الحريق فإنى أعتقد أنه كان متكاسلاً لا يظهر أى حماس فى إطفاء الحريق . وبدا لى قلقاً . وكان كلما رأى مجموعة من الناس تتحدث يقترب منها

لينصت إلى أحاديثهم . وكنت واقفاً مع عمدة القرية أحدثه فلم يتوقف ليسنييه عن تحديق النظر فينا اعتقاداً منه أنني أشكو من تصرفاته معي التي لا صلة لها بالجريمة . والواقع أنني كنت أشكوه للعمدة لأنه اقترض مني مبلغاً ولم يرده لي ، واشتريت منه نصف برميل نبيذ ولم أدفع له الثمن خصماً من دينه لي ، ورفعت دعوى على ليسنييه أطالبه بالمبلغ فاعترف باستلامه للمبلغ ولكنه زعم أنني دفعته له مقابل شراء سكوته لما زعمه من وجود علاقة بيني وبين أخته .. زوجة أخي » .

واستمر القسيس متبرعاً يضع السم في الدسم فقال : « في ليلة الحادث كان النور مضاء في غرفة نوم ليسنييه حتى الساعة التاسعة والنصف مساء مع أنه اعتاد أن ينام مبكراً . وذلك أمر يدعو للاستغراب » .

* * *

وتبين المحقق ما في شهادة القسيس من تحيز ظاهر مرجعه النزاع القائم بينه وبين المتهم فلم يعلق عليها أية أهمية وصمم على حفظ التحقيق وقيد الحادث ضد مجهول .

وإذا بحادث جديد يحول دون حفظ التحقيق . ذلك أن رجلا اسمه « دانيو » وصل في الساعة السادسة والنصف مساء يوم ٢١ نوفمبر — أي بعد ستة أيام من الحادث إلى أحد منازل القرية ، وارتمى على أول مقعد صادفه وهو يرتجف مقطوع النفس لا يكاد يقوى على الكلام . وأشار إلى ثوبه الممزق . فلما استرد أنفاسه روى للموجودين أن قطاع طريق تعرضوا له وهو يخترق الغابة وحاولوا سرقة ما معه ولكنه استطاع أن يفلت منهم بأن ضرب أحدهم بمظلته ففر الآخرون .

إ تلك كانت روايته الأولى . وفي الغد طلب منه عمدة القرية أن يشرح له الاعتداء الذي وقع عليه فروى روايته الأولى وأضاف أن المعتدين اثنان

يرتدى أحدهما صديرياً أزرق وبنطلوناً من نفس اللون ، ويضع على رأسه قلنسوة (بيريه) . والثانى يرتدى صديرياً أحمر اللون وبيريه . وأضاف أنه لا يستطيع أن يؤكد أنه عرف شخصيتيهما ولكن لديه شكوكاً ، وأنه يستطيع أن يتعرف عليهما إذا عرضا عليه .

وتلك كانت روايته الثانية . ثم استدعاه ضابط البوليس فأعاد روايته للعمدة وأضاف أنه متأكد أن المعتدين عليه هما ليسنييه الابن وأبوه .... إنه لم يتأكد منهما فحسب ، بل تحدث إليهما . قد لا يكون متأكداً من الأب أما الابن فهو واثق كل الوثوق منه ويقسم على ذلك ، كانت هذه روايته الثالثة .

* * *

وقالت النيابة العمومية لنفسها — إن صح هذا التعبير — إن من يحاول سرقة رجل معدم مثل دانيو — لا مصلحة له فى إلقاء تهمة باطلة على برىء لا يستبعد عليه أن يرتكب جريمة قتل جاى العجوز . مع أن تعدد روايات دانيو واختلافها كانا كفيلين بإظهار كذبها . ولكن الجريمة كانت فظيعة ، وأمن القرية يتطلب العثور على الفاعل . فسارعت النيابة العمومية وأمرت بالقبض على ليسنييه — الأب والابن — وتفتيش منزل ليسنييه الأب ، حيث عثر على صديرى من الصوف ، بكميه بقع تثير الشبهة ، ومثلها على قميص من القطن !

وقال ليسنييه الأب إن هذه البقع من آثار عمله فى زراعة الأرض ، فقد يكون أمسك ببقرة مجروحة أو لصقت به البقع أثناء نقله للسماد. كذلك عثر عنده على ثلاثة هيكتولترات من النبيذ فى براميل . وتطوع صانع البراميل بالشهادة أنه أصلح براميل ليسنييه الأب من فترة وجيزة ولم تكن هذه البراميل من ضمن ما أصلح له .

وعثر فى مكان آخر — فى الجرن — على قميص نسائى تحت كومة

من التبن ، وقال ليسنييه الابن إنه قد يكون خاصًّا بأخته التى تشتغل بحياكة الملابس .

كذلك عثر على بقعة حمراء تلوث مقبض أحد الأبواب ظن أنها دموية . وقال ليسنييه إنه إذا ظهر أنها دموية فالمسئول عنها جزار القرية الذى اعتاد أن يعرض لحومه أمام باب المنزل وأحياناً فى مدخل المنزل إذا كان الجو لا يسمح بعرضها فى العراء .

ومع أن كل هذه الأقوال لا تكون دليلا يمكن الاستناد إليه إلا أن النيابة العمومية أمام قوة الإشاعات التى انتشرت بين أهل القرية اضطرت للقبض على الرجلين وإيداعهما السجن .

وإذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها كما يقول المثل العامى.

وحملت السكين الأولى وتطوعت بالطعنة الأولى زوجة لسبانى — مارى سيساك — التى دلت التحريات على أنها عشيقة ليسنييه الصغير . قالت إنه بعد ارتكاب الجريمة وقبل القبض على ليسنييه قدم لها الابن قطعة قماش تكفى لعمل ثوب هدية حتى لا تبوح ببعض أسرار تعرفها . وقالت إنه كان من سوء حظها أن تعرفت منذ عام على ليسنييه الصغير وأدت تلك المعرفة إلى انفصالها من زوجها بسبب ما كان ليسنييه يوحيه إليها . وكان فى الوقت نفسه يهددها بأن لا تذكر اسمه وإلا نالها منه ما لا قبل لها على احتماله . وقالت إنه كان يضع فى أدراج مكتبه عدداً من المسدسات جعلها تخضع لكل أوامره . وذات مرة جعلها تقسم على أن لا تسمح لزوجها بالاتصال بها ، وأنها منذ ذلك الوقت امتنعت على زوجها وأنه نصحها أن تقول أمام القضاء إن زوجها يسىء معاملتها ويهينها ويضربها . ولم تكن تلك مجرد نصيحة بل أمراً مصحوباً بالتهديد . وقد فعلت كل ذلك من خوفها منه! .. وأن ليسنييه — بعد حادث الحريق الذى راح ضحيته جاى العجوز — قال لها إنه سيقدم لها قرضاً مقداره

مالفا فرنك لتصرف منه على قضيتها ضد زوجها ولتحصل على نصف ثروته . بل قال لها إنها إذا لم تنجح فى كسب قضيتها ضد زوجها فإنه سيعمل على إثبات أن له ضلعاً فى جريمة الحريق !

ولم تكتف مارى سيساك باتهام عشيقها بل وجهت غضبها إلى الأب فزعمت أنه قابلها بعد الجريمة وقال لها إنه يريد أن يقدم لها بعض النصيحة لتفيدها فى قضيتها ضد زوجها ، وطلب منها أن تلحق به إلى مسكنه . وأشار لها على دجاجة ضالة من دجاجات ابنه وطلب منها أن تحملها إلى منزله لتبر ر زيارتها له ولتمنع الأقاويل .

* * *

واعتبر المحقق هذه الشاهدة اكتشافاً أو « لقطة » يسند بأقوالها اتهاماً متداعياً ، فأكثر من استدعائها وأكثرت هى من الذهاب إليه ، وفى كل مرة كانت تضيف جديداً على أقوالها . مع أنها حين سألها المحقق ضمن من سألهم فى الصفحات الأولى من التحقيق قالت إنها لا تعلم شيئاً يفيد التحقيق . ولما ووجهت بذلك قالت إنها كانت مرتبكة .

* * *

وتقدمت صاحبتنا مرة ثالثة أو رابعة — تلقائياً دون أن يستدعيها المحقق — وقالت إنها تريد سد نقص فى أقوالها السابقة ، وقالت إنها بعد ثلاثة أيام من الحادث مرت على ليسنييه الابن ، وكان واقفاً وسط تلاميذه فى حوش المدرسة ، فوجدته قلقاً يهرش شعر رأسه ، وقد بدا الارتباك عليه . فسألته عما به فقال لها إنه لم يذق طعم النوم منذ ثلاثة أيام فقد كان يخشى أن تتجه أبحاث المحقق نحو براميل النبيذ ، ولكن من حسن الحظ أنهم وجهوا اهتمامهم وجهة أخرى فلم يعد هناك مايخشاه .

وفى مرة أخرى قالت إنه قبل الحريق بخمسة أيام قال لها إنها سوف

تسكن البيت الذى اشتراه من جاى مع أبيه وأمه وأنه سوف يبنيه بناء جديداً . فسألته وأين سيذهب جاى ؟ فقال لها إنه بعد أسبوع لن يكون جاى موجوداً . وإنها ذكرت له ذات مرة أنها تعتزم أن تطلب من جاى أن يعطيها ما عنده من نبيذ سداداً لدينه فأشار عليها بأن لا تفكر فى ذلك وتعتبر أن دينها من الديون المعدومة لأن براميل الخمر لن تظل طويلا . وكانت فى كل مرة تؤكد للمحقق أن علاقتها الأثيمة بليسنييه كانت تحت التهديد ، وأنها فى كل مرة أباحت نفسها له كان يضع المسدس بجوا رالسرير لتخضع له . وأنه طلب منها أن تشترى من الصيدلية سماً يدعونه على ما تذكر زرنيخ — بحجة استعماله للقضاء على الفيران — وطلب منها أن تضعه فى أى شراب يتناوله زوجها .

ولم تكتف صاحبتنا بهذه الأقوال — التى كانت تضيف إليها جديداً من خيالها وتقدمها إلى المحقق من غير أن يستدعيها أو يدعو التحقيق إلى سؤالها — بل تقدمت للمرة التاسعة أو العاشرة . بعد أن علمت أن الأطباء الشرعيين قرروا أن جاى قتل بضربة مطرقة . لتقول إن ليسنييه قال لها قبل حادث الحريق بثمانية أيام إن أيام جاى أصبحت معدودة وإن أبسط ضربة من مطرقة تودى بحياته . وقبل المحقق هذه الأقوال الواضحة البهتان كما لو أن ليسنييه دبر جريمة قتل وأبى إلا أن يضع مصيره بين يدى تلك المرأة التى تقول إنها لم تخضع له إلا تحت تهديده وبطريق مسدسه !

* * *

وعرضت القضية على محكمة جنايات (بوردو) ، ومثل الاتهام فيها النائب العام نفسه ، الفقيه الكبير ذائع الصيت « تروبلونج » ، فشرح وقائع الدعوى شرح المقتنع بصحة أقوال الشهود جميعاً ، وقال إن العدالة بقيت شهوراً لا تعرف الفاعلين . وبرر ذلك بأن أهل القرية

جميعاً التزموا الصمت لخوفهم من بطش المتهمين ، حتى تقدمت تلك المرأة الشجاعة ففتحت أمامهم الطريق !

ثم أخذت المحكمة فى مناقشة شهود الإثبات ، فلم يصمدوا أمام مناقشة الرئيس وتضييق محامى الدفاع : فالشاهد دانيو الذى ادعى بحصول الاعتداء عليه فى الغابة لا يؤكد أنه رأى ليسنييه الأب وإن ظل يؤكد أنه عرف الابن من صوته وملابسه . والمرأة لسبانى بدأت تهته ولا تتذكر شيئاً من أقوالها فى التحقيق ، واضطر القاضى أن يتلوها عليها فأيدتها ولكنها حرصت على أن لا توجه نظراتها إلى المتهم ... وجاء الاتهام بشهود عديدين من أبناء القرية ليسيئوا إلى سمعة المتهم بأقوال لا تمت إلى الجريمة بصلة : فواحد يقول إنه طالب ليسنييه بثمن نبيذ اشتراه منه فاعتذر بأنه فقير مثله ولا يملك ثمن النبيذ وهدده بقوله له : « إذا لم تكف عن المطالبة فستعرف من أنا وستندم » . وآخر ضمن ليسنييه الأب فى مبلغ خمسين فرنكاً واضطر إلى دفعها لأن المدين لم يسدد دينه .

أما الدفاع فقد أشهد شهوداً أثبتوا أن ليسنييه الابن — فى وقت الاعتداء المزعوم — كان مدعوًّا للعشاء بمنزل أسرة معروفة موثوق بها وأنه بقى بالمنزل يلعب الورق حتى قرب منتصف الليل ... وشهد بذلك أفراد الأسرة وجميع الضيوف الذين كانوا بالمنزل . ولكن عمدة المدينة قال فى شهادته إنه يجب أخذ أقوال أمثال هؤلاء الشهود بكثير من الحيطة وجارته المحكمة واستبعدت أقوالهم !

وترافع ممثل الاتهام بطريقة هادئة ... قاتلة ... فجمع أقوال الشهود الذين شهدوا ضد المتهمين وأسبغ عليها من بلاغته ومكانته ماجعلها تقنع المحلفين ، بينما مر مروراً خفيفاً على جميع الأقوال التى كانت لصالح المتهمين ، ثم أوضح بإسهاب أن صاحب المصلحة الوحيد فى موت

جاى العجوز هو ليسنييه الابن ولا أحد غيره !

وبذل الدفاع جهداً جباراً ، فأوضح أن الشهود — وبخاصة عمدة المدينة — قد غالوا فى القول بأن ليسنييه الابن مدين ، غارق فى الدين . فقد أثبت بأدلة لا تقبل الشك أن مجموع ديونه لا تكاد تبلغ المائة فرنك ، أى أن دينه أقل من مرتب شهر واحد . وأظهر ما فى أقوال الشاهد دانيو — الذى زعم أنه هوجم فى الطريق العام — من تردد ، وأن ليسنييه الأب والابن كانا فى وقت الاعتداء المزعوم يتعشيان فى أمكنة بعيدة عن مكان الاعتداء !

أما الشهود الذين قالوا إن ليسنييه الابن كان يقول إنه لن يدفع الإيراد المقرر للعجوز جاى لمدة طويلة فذلك أمر طبيعى فى أحاديث القرويين . فقد كانوا يحقدون عليه للصفقة الرابحة التى أجراها ، فكان يمزح معهم تارة ويكايدهم تارة أخرى . ولكن ذلك لا ينهض دليلا على أنه هو الذى قتله ، فما سمعنا — فى تجاربنا الطويلة فى القضاء — أن الشخص الذى يقدم على جريمة يعلن تصميمه ذلك على الملأ !

ثم تعرض الدفاع لشهادة الزوجة الخائنة التى شهد أبوها أنها لا تنام الليل من الخوف ، وقال إنها لا تنام الليل لا خوفاً من ليسنييه ولكنه تأنيب ضميرها الذى يقض مضجعها . وتساءل كيف تريدنا أن نصدق أنها كانت تسلم نفسها يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة لليسنية خوفاً من تهديده ، وهى التى سارت بسوء سمعتها الركبان وكانت لا تزال موضع أحاديث القاصى والدانى !

ثم أمسك الدفاع بتلابيب الباعث المزعوم للجريمة فى نظر الاتهام وهو أن يتخلص ليسنييه الابن من دفع الإيراد السنوى المتفق عليه مدى حياة جاى العجوز . وقال إن ذلك الإيراد هو ستة فرنكات شهرياً فهل لمثل هذا المبلغ التافه يقتل إنسان رجلا آخر ؟ وكيف يعلل الاتهام

المجرم : الزوج أم العشيق ؟ (ص ٦٩)

أحرق المسكن الذى كان سيعود إلى المتهم نفسه والذى قدر ثمنه بأكثر من خمسمائة فرنك ؟ أى ما يعادل إيراد عشر سنوات . فهل يعقل أن يفعل ليسنبيه ذلك ، أى يجدع أنفه بيده .. ؟؟

وحين اختلى المحلفون إلى ضمائرهم تولتهم حيرة لا يعرفون لها حلاً : لقد هز الدفاع عقيدتهم هزًا . ولكنهم أمام جريمة بل جرائم ارتكبت فى قرية صغيرة فأحدثت بين سكانها دويًا : رجل ضعيف عجوز قتل غدراً وأحرق منزله وسرقت أمواله . فلابد من عقاب رادع حتى لا تتكرر مأساة أخرى . وفات المحلفين أن إدانة برىء أشد وقعاً من تبرئة ألف مجرم . لذلك أمسكوا بالعصا من الوسط فبرأوا الأب من التهم الثلاث كما برأوا الابن من تهمة السرقة وأدانوه فى تهمتى القتل والحريق العمد ... والظاهر أنهم أحسوا بأنهم ظلموه فمنحوه الظروف المخففة مع أنه — إن صحت إدانته — لا محل للظروف المخففة بل لعل الظروف المشددة هى التى كانت واجبة .

وحين سمع الابن بالقرار أصابه ذهول ودمعت عيناه . وجرى — على مشهد من الحاضرين — المنظر الذى ذكرناه فى بدء كلامنا . إذ اقترب أبوه منه وأمسك بيده مشجعاً وقال له « لا تبتئس فإن أباك معك ».

* * *

وفكر الأب طويلا وهداه تفكيره إلى أن صاحب المصلحة فى اتهام ابنه هو لسبانى — زوج عشيقة الابن — أولا للانتقام من خيانة زوجته . ولإبعاد التهمة عن نفسه . وأخذ الأب بمساعدة محامى ابنه يجمع فى صبر عجيب المعلومات التى يمكن بها إثبات أن خطأ قضائيًا قد وقع . وأخذا يقدمان البلاغ تلو البلاغ كلما عثرا على ما يدل على أن شهود الإثبات كانوا شهود زور ؛ ولكن المحققين — تعصباً منهم لعملهم — أبوا أن يسلموا بأنهم أخطأوا ؛ وكانوا يحفظون تلك البلاغات دون تحقيق !

ولكن للعدالة — حتى العدالة الإنسانية — قوة ذاتية تأبى أن يطول اختفاؤها : فالنائب العام الذى أراد أن يطمسها رقى مستشاراً . وقاضى التحقيق نقل إلى مدينة أخرى . وجاء إلى المدينة نائب عام جديد . شاب متفتح الذهن لا تربطه بالماضى أية رابطة ولا يتأثر بالعوامل المحلية . قرأ بانتباه المذكرة التى قدمها له محامى ليسنييه وتبين أنها جديرة بأن تحقق . ولكنه وجد أن فى إقدامه على إجراء تحقيق جديد مخاطرة ضارة لما فيها من تشكيك فى صحة حكم نهائى هو — بنص القانون — عنوان الحقيقة كما أن فيه مجازفة بمستقبله كنائب عام إذا لم يوصل التحقيق إلى إثبات الخطأ القضائى وإدانة المتهم الحقيقى !

ولكن الأستاذ « شارادو » وهو النائب العام الجديد لم يتردد ، وأقدم على التحقيق الجديد غير عابئ بما قد يصيبه من ضرر . فاستدعى أحد رجال الضبط من المشهود لهم بالدقة والأمانة وكلفه بحث البيانات التى قدمها ليسنييه الأب ومحاميه ، فى تحفظ ، ومن غير أن يثير انتباه المجرمين الحقيقيين أو ينبه من لهم مصلحة فى إخفاء الحقيقة لتغطية أخطائهم . واستمر الضابط فى أبحاثه طوال خمسة أشهر كان خلالها ينقل إلى النائب العام نتائجها أولا بأول .

وذات يوم انتقل النائب العام فجأة إلى القرية ، وفى خلال أربعة أيام بلياليها — لم يتوقف التحقيق أثناءها ساعة واحدة — استدعى جميع الشهود ، ولم يدع لهم وقتاً يتفقون فيه على دفاع معين . واستطاع المحقق أن يثبت كذب ادعاء دانيو الذى سرعان ما اعترف بأن لسبانى الذى كان يداينه فى مبلغ ثمن أرغفة استهلكها هدده وأرغمه على اتهام ليسنييه كذلك استدعى المحقق زوجة لسبانى وواجهها بما فى أقوالها من تناقض ، فحاولت أن تصر عليها ، ولكنها ما لبثت أن انهارت واعترفت باختلاقها للأقوال التى نسبتها لليسنييه . ولكنها بدلا من أن تتهم زوجها قالت إن

عمدة المدينة والقسيس هما اللذان حرضاها على هذا الاختلاق . واستمر القاضى فى تحقيقه . وتقدم شهود عديدون شهدوا بأن لسبانى اعترف لهم بأنه هو الذى قتل العجوز جاى بالاشتراك مع ربيبه « مالفشيل » الذى اعترف لهم بذلك وأطلعهم على المطرقة التى استعلمت فى ارتكاب الجريمة !

وأصدر القاضى أمراً بالقبض على لسبانى ، فاعترف ، ولكنه ادعى أنه كان قد ذهب ليشترى من القتيل ما لديه من نبيذ . وحين انصرافه وقعت مشادة بينهما فدفعه بيده — غير قاصد قتله — ووقع العجوز ؛ ولم يتصور لسبانى أن وقوع جاى سيؤدى إلى وفاته ، فانصرف وترك شمعة وقعت أثناء ذلك على كومة من الخشب أملا فى أن يتنبه جاى لها ويطفئها .. وهكذا حدث الحريق ومات الرجل !

* * *

وظهرت براءة ليسنييه ، كما ثبت أن الشهود الذين شهدوا فى المحاكمة الأولى شهدوا زوراً . ولكن إثبات البراءة يتطلب إجراءات معقدة .. وأخيراً قدم لسبانى وزوجته ودانيو للمحاكمة ؛ الأول بتهمة القتل والتحريض على شهادة الزور ؛ والاثنان الآخران بتهمة الشهادة الزور . وأدين الثلاثة وحكم على كل منهم بالأشغال الشاقة لمدة عشرين سنة ، وبأن يدفعوا لليسنييه الابن مبلغ خمسين ألف فرنك تعويضاً .

ورفع الأمر إلى محكمة النقض ، لوجود حكمين متعارضين . يدين أحدهما ليسنييه بتهمة القتل ، بينما يدين الآخر لسبانى . وقضت محكمة النقض بإلغاء الحكم الأول وتأييد الحكم الثانى .

ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد ثمانى سنوات قضاها ليسنييه فى عذاب

أس ، إلى أن خرج من سجنه كسير القلب منهوك الجسم . ولم يعش يلا إذ لم يلبث أن قضى نحبه .

إن العدالة الإنسانية ليست معصومة ، ومما يشرف رسلها أن يرجعوا ن الخطأ متى تبينوه ، فالرجوع إلى الحق فضيلة ، والإصرار على الباطل يلة ، أى رذيلة . وقديماً قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« لا يمنعك قضاء قضيت فيه بالأمس عن الرجوع عنه إذا تبين ك وجه الحق » .. أو قولا بهذ المعنى .

رفض الزواج منها.. فسجنه!

هذه قضية فتاة صغيرة — ستة عشر ربيعاً — ربيت تربية دينية متزمتة أضفت عليها مظهراً من الورع والتقوى خدعت به أهل مدينتها فناصروها ، وخدعت بهالصحافة فتحمست لها ، وخدعت به اثنين من كبار المحامين فتبنيا قضيتها ونصرا — بقوة حجتهما — باطلها ، وخدعت النيابة العمومية فتحركت من أجلها ، وخدعت المحلفين فأدانوا خصمها مع وضوح براءته.

... وهي في الوقت نفسه قضية ضابط شاب مستهتر مشهور ، كثير الديون والمغامرات ، خدع مظهره المحلفين فأدانوه بغير دليل ، أو بالأصح بناء على أقوال تلك الفتاة وحدها .

أما الفتاة فهي « مارى موريل » ابنة الجنرال كونت « موريل » قائد مدرسة (سومور) الحربية. وأما الضابط فهو الملازم « لارونسيير » ابن الجنرال كونت لارونسيير وأحد تلاميذ مدرسة سومور..

ولقد وجدت مدام موريل أن لارونسيير — برغم سمعته — يصلح زوجاً لابنتها ، فدعته إلى إحدى الحفلات وأجلسته إلى جوار ابنتها . ولكن الفتاة لم ترق في عين الضابط الشاب ، فلم يبد أي اهتمام بها .

وقد زعمت — فيما بعد — أنه أسر إليها بأن لها أمًّا فى غاية الجمال . وأن من المؤسف أنها لا تشبهها .

وكان من ضمن الذين يترددون على مدرسة سومور وعلى بيت الجنرال موريل ضابط آخر اسمه « ديستول » وضعت الأسرة عينها عليه لتزوجه ابنتها ..

وبعد تلك الحفلة المشئومة بدأ سيل من الخطابات المجهولة يصل تباعاً إلى زوجة الجنرال ، كان أولها خطاب غزل يقول فيه مرسله :

« سأنتظر اليوم بطوله أمام منزلك . فإذا رأيتك تخرجين من الباب فاسمحى لى أن أعتقد أنك لا ترفضين الحب المقترن بالاحترام الذى يكنه لك قلبى » .

وأطلعت مدام موريل زوجها على الخطاب ففتح نافذة تطل على كوبرى نهر اللوار فى الوقت الذى اعتادت زوجته فيه مغادرة المنزل ، فخيل له أنه رأى لارونسيير يبتعد مسرعاً على الكوبرى .

ومن هنا بدأت متاعب لارونسيير . فنسب إليه الخطاب المجهول وما تلاه من خطابات لم ينقطع سيلها . وكانت خطابات تهديد وسب وبذاءة وإهانة موجهة إلى الجنرال وزوجته وابنته ومربيتها مس ألن — والكابتن ديستول . ولم يفد لارونسيير توكيده أكثر من مرة أنه لا شأن له بتلك الخطابات .

* * *

وفى إحدى حفلات الجنرال موريل علم أن لارونسيير موجود بمنزله ، فأرسل فى طلبه وقال له — بحضور الكابتن « جاكان » — : « أرجوك لأسباب خاصة بى ، أن تنسحب من منزلى ، وأن لا تتردد عليه بعد اليوم » .

وانسحب لارونسيير دون أن يعترض ، ولكنه فى اليوم التالى قابل

زميلا له وروى له ما حدث ، ثم زار الكابتن جاكمان وطلب منه تفسيراً لحادث الأمس ، فنسب جاكمان السبب إلى حديث لارونسيير للآنسة موريل وإلى الخطابات المجهولة .

وطلب لارونسيير رأى مسيو « أمبير » وهو صديق للأسرتين ؛ فأشار عليه بأن يتقدم ببلاغ للنيابة العمومية ، ويطلب تعيين خبراء خطوط لمعرفة كاتب الخطابات المجهولة . ولكن ذلك الرأى لم يرق للارونسيير لما فيه من إساءة لسمعة الآنسة موريل .

* * *

واستمر سيل الخطابات ومنها أربعة أرسلت إلى ديستول يقول مرسلها فى آخر خطاب منها :

« إن القتل نفسه لا يشفى غليلا . لابد من إهدار كرامة تلك الفتاة اللعينة . وإذا كنت تريدها فسيلقى بها فى أحضانك . لقد أحببتها حبًّا جنونيًّا — أى ماديًّا — وعلى طريقتى ؛ وسعيت لكى أدير رأسها ، ولكن نظرة الاحتقار التى رمقتنى بها منعتنى من أن أبوح لها بحبى . لذلك سأنتقم منها بسبب حبها لك » .

وأطلع ديستول الجنرال موريل على الخطاب وطلب منه أن يسمح له بطلب لارونسيير للمبارزة ، ولكن الجنرال رجاه أن لا يفعل محافظة على سمعة ابنته .

وفى مساء ٢٣ سبتمبر ١٨٣٣ ذهب الجنرال موريل وزوجته إلى المسرح وتركا ابنتهما ومربيتها — التى لا تكبرها إلا بسنتين فى الدور الثالث من منزلهما حيث تقيمان بمفردهما . وقالت مارى موريل إنها استيقظت فى الساعة الثانية صباحاً على صوت كسر زجاج غرفتها ، ورأت يداً تمتد وتفتح النافذة ، ورجلا يدخل إلى غرفتها ويسارع إلى قفل الباب الفاصل بين غرفتها وغرفة مربيتها . وأنها قفزت من فوق

ريرها واحتمت بكرسى كان فى متناول يدها واستطاعت أن تتبين لى ضوء القمر الرجل — بالرغم من أنه كان ملثما — إنه لارونسيير .

وقالت إنه ألقى بنفسه عليها وقال لها « لقد جئت لأنتقم » . ولم يستطع ى بادئ الأمر أن يمسك بها لأنها كانت تمسك الكرسى ، ولكنه غلب عليها وانتزع قميص نومها ولف منديلا حول عنقها وشده بقوة نعتها من الصراخ ، ولف حبلا حول جسمها وأحست بقدمه بين ساقيها ، م ضربها فوق صدرها وعلى ذراعيها ، وعضها فى قبضة يدها . وقال لها ن هذا هو انتقامه مما حدث له بمنزل والدها ، وإن انتقامه سيكون عنف من الشخص الذى استعمل الخطابات المجهولة ، وإنه من اللحظة تى وقع نظره عليها وشئ ما يدفعه إلى الانتقام منها ، وإنه طعنها آلة حادة ولكمها على فخذيها .. وعندها فكت عقدة لسانها فصرخت وصل صوتها إلى مربيتها الآنسة ألن فبدأت تطرق الباب بعنف ، وعندها قال لارونسيير « هذا يكفى » وقفز من النافذة ..!

وقالت المربية إنها وجدت مارى فى حالة إغماء ، وجسمها ملفوف بحبل ، وعنقها بمنديل ورأت آثار دماء بموضعين أو ثلاثة من جسمها ، ولما أفاقت روت لها ما حدث .

وأرادت مربيتها أن توقظ الجنرال وزوجته ولكن مارى رفضت وأسرعت إلى النافذة حيث كان لارونسيير لايزال واقفاً ينظر إلى النافذة بشماتة ، ويقهقه مسروراً .

وفى الساعة السادسة صباحاً أيقظت المربية الجنرال وزوجته فحضرا ورأيا الزجاج المكسر والنافذة المفتوحة والمنديل والحبل . ولكن مدام موريل رأت برغم فداحة الاعتداء أن تتكتم الأمر محافظة على سمعة ابنتها .

ولم ينقطع سيل خطابات التهديد ، وكلها بنفس الخط . خطاب

إلى مدام موريل يقول مرسله إنها وحدها التى تعرف سبب الاعتداء على ابنتها . وخطاب إلى دوستول يصفه بالحقارة والجبن .

رأى ديستول أنه لا محل للسكوت بعد ذلك فطلب إلى صديق له أن يكون شاهده وطلب إلى لارونسيير أن يبارزه ... وأكد لارونسيير للصديق أنه لم يرسل إلى ديستول ولا لغيره أى خطاب ، وأنه لا يرى محلا لهذه المبارزة ، ولكنه نزولا على قواعد الشرف فى تلك الأيام قبل المبارزة وتغلب على ديستول وأصابه بجرحين .

وبعد انتهاء المبارزة استحلفه ديستول أن يعترف ووعده بنسيان كل شىء ، ولكن لارونسيير أصر على إنكاره . فقال ديستول « إننى سأبلغ النيابة العمومية ضدك» . ووافق لارونسيير على الفور وطلب تسليمه الخطابات ليحملها بنفسه إلى النيابة العمومية . ولكن ديستول رفض خشية أن يعدم لارونسيير الخطابات .

* * *

وتحت تأثير إلحاح زملائه من الضباط ، وخشية وصول الأمر إلى والده ، قبل لارونسيير أن يكتب اعترافاً كاملا بأنه كاتب جميع خطابات التهديد ، واعتذر عنها ، وقرر أنه طلب إجازة من المدرسة ووعد بمغادرة سومور فى اليوم نفسه وسافر فعلا إلى باريس .

والاعتراف كما هو معروف سيد الأدلة ... بشرط أن يكون اعتراف صحيحاً تسنده الوقائع . ولكن سيل خطابات التهديد المرسلة من سومور لم ينقطع . وكان هذا وحده كافياً لإقناع من لم يقتنع بعدم صحة الاعتراف

* * *

وتحسنت صحة مارى بعض الشىء ثم عثر عليها فى حالة غيبوبة وبيدها خطاب تهديد جديد . ولما أفاقت أخذت تصرخ « الرجل الأحمر . الورقة .. إنهم يقتلون أبى وأمى» ... واستمرت حالتها تسوء فاستدعت

أسرتها الكاهن . وأتموا لها الإجراءات الدينية متوقعين أن تقضى نحبها بين لحظة وأخرى . ورأى الجنرال نفسه مضطرًا لإبلاغ السلطات فقبضت على لارونسيير ووجهت إليه تهمة الاعتداء على مارى وإرسال خطابات التهديد ....

ومع ذلك استمرت خطابات التهديد . ولارونسيير فى السجن !

* * *

وعندها رأى لارونسيير أن إنكاره لا يكفى للدفاع عن نفسه فاتخذ موقف الهجوم . قال إنه يعتقد أن ما حدث مؤامرة من تدبير مدام موريل وابنتها والمربية ، واشترك فيها ديستول . وأنه لم يحدث أى اعتداء على مارى . وأن ديستول كان على علاقة بمارى عن طريق مربيتها .. علاقة ربما أنتجت حملا ، فألفت مارى واقعة الاعتداء إنقاذاً لسمعتها . وحين علم والداها بالحقيقة أرادا إجباره بهذه الطريقة على الزواج منها . وتحدى أن يثبت التحقيق أن خطابات التهديد بخطه .

* * *

ولم تر النيابة العمومية مفرًا من تعيين خبراء لتحقيق ذلك التحدى . وكان موضع الدهشة أن الخبراء الثلاثة الذين عينتهم النيابة أجمعوا على أن الخطابات ليست بخط لارونسيير . وأن اثنين منهم جزما بأن الخطابات بخط مارى موريل ، وقال الثالث إنه من المرجح أن تكون بخطها ولكنها تعمدت تغييره .

ولولا هياج الرأى العام وحملات الصحافة المخدوعة لقفلت النيابة التحقيق وحفظت الدعوى وأفرجت عن لارونسيير . ولكن النيابة العمومية فضلت أن تكذب خبراءها على أن تكذب فتاة صغيرة ربيت تربية دينية ،ووجدت فى ألفاظ الخطابات وبذاءتها مالا يتصور صدوره من مثل هذه الفتاة ، فرفعت الدعوى العمومية .

وجارت النيابة العمومية الرأى العام فنشرت فى الصحف — على غير المعتاد — تقرير الاتهام قبل الجلسة المحددة لنظر الدعوى بعدة أسابيع . وتناولت الصحف تقرير الاتهام بالتعليق ، وتتبع الجمهور تلك التعليقات بشغف . فكتب لارونسيير إلى الصحف الاحتجاج التالى :

« إنها سابقة خطيرة أن ينشر تقرير الاتهام قبل بدء المحاكمة فيترك المتهم تحت وقع هذا الاتهام — صحيحا كان أو كاذباً — دون أن يكون له الحق فى الدفاع عن نفسه . ويبدو لى أنه فى مثل هذه الظروف يجب أن تقدم مصلحة المتهم على حب استطلاع الجماهير

أما عن التهمة الموجهة إلىّ فإنها تحتاج لمرافعة طويلة لإثبات زيفها ، ويكفينى أن أقول إن هذه الرواية الخيالية سوف تنهار فصولا فصلا بعد فصل . وإننى وأسرتى — بعد نشر هذا الاتهام — حريصون على أن تجرى المحاكمة بصورة علنية لتظهر الحقيقة فى وضح النهار .»

وادّعت أسرة موريل مدنيا وعهدت إلى اثنين من أكبر محامى فرنسا إذ ذاك فى تأييد وجهة نظرها . هما الأستاذ أوديون بارو — الذى أصبح فيما بعد وزيراً للعدل — والأستاذ برييه الغنى عن التعريف. كما عهد لارونسيير بالدفاع عنه إلى الأستاذ « شيه ديستانج » المحامى الشاب الذى بدأ اسمه يلمع فى سماء المحاماة والذى أصبح فيما بعد نائباً عموميّاً .

* * *

بدأ أوديون بارو مرافعته التى استغرقت عدة ساعات يشرح خطورة الجريمة والبواعث التى حملت الأسرة على تكتم الأمر ثم قال :

« إننى — وقد قضيت حياتى كلها فى حمل رسالة الدفاع المقدسة . أجد نفسى — للمرة الأولى التى أرجو أن تكون الأخيرة — أرفع صوتى ضد متهم . ومهما بلغ كرهى للجريمة وإيمانى العميق بثبوت التهمة ،

فلن أنسى أنني أرفع صوتي ضد إنسان في محنة ، وأن إدانته يجب أن تكون نتيجة اليقين الذي لاشك فيه لانتيجة البلاغة الخطابية . »

ثم تحدث عن المبارزة التي جرح فيها ديستول وتساءل : « كيف يملي المغلوب فيها شروطه على الغالب ويلزمه الاعتراف بجريمة يزعم الآن أنه لم يرتكبها — ويقبل ذلك بغير احتجاج ويوقع على اعترافه صاغراً ؟ أليس ذلك شأن المذنب المقر بذنبه ؟ ؟ »

« لقد قلت في بداية مرافعتي إنني آسف لأنني — خلافاً لطبيعتي — أتولى الاتهام . ولكنني أخطأت .

إنني هنا ما زلت أقوم بدور الدفاع عن شرف وسمعة فتاة بريئة يحاول دفاع لا رونسيير الكاذب أن يلطخ جبينها بالعار . إنه يتهمها — وهي الفتاة الصغيرة البريئة — بأنها اخترعت تلك الوقائع المريعة من خيالها المريض ، وأنها هي التي كتبت تلك الخطابات البذيئة ، وأنها حددت موعداً غرامياً لأمها مع أحد الضباط ، وأنها هي التي كتبت خطاباً غرامياً لضابط آخر » .

ثم بدأ يقرأ للمحكمة الخطابات المجهولة ليبين أن تعابيرها وبذاءة ألفاظها لا يمكن أن تصدر عن فتاة بريئة في سنها وإنما تصدر من ضابط مستهتر معروف بمباذله .

ثم هاجم تقارير الخبراء وسخر منها ، وضرب أمثلة عديدة بقضايا ثبت فيها خطأ الخبراء ، وقال إنه لم يبق أمام الدفاع إلا الاحتماء بجنون مارى . ولكنه جنون متقطع تسترد كامل قواها العقلية في ساعات استنارة عقلها كما رأيتموها وهي تدلي بأقوالها أمامكم .

ثم ضيق الخناق على لارونسيير لاعترافه المكتوب والموقع عليه بخط يده وتساءل في ختام مرافعته : « هل يريد الدفاع أن يقول إن أسرة موريل دبرت كل الذي حدث فكسرت زجاج النافذة وفتحته وأحضرت

منديلا وحبلا وانهالت بالضرب واللكمات على ابنتها وطعنتها فى ذراعيه وفخذها ؟

« إن أسوأ يوم فى حياتى هو اليوم الذى يؤدى فيه كلامى إلى إدانة برىء . أما هنا فإننى أعلن بأعلى صوتى أن إيمانى بصحة التهمة كامل فأنا فى وضع لا يسمح لى إلا بأحد فرضين إما إدانة الفتاة الصغيرة ماري موريل أو إدانة المتهم . وأنا كرجل ورب أسرة وبدافع من ضميرى لا أجد محلاً للتردد ».

ولم يكن يدرى أن كلامه وقوة مرافعته قد أديا فعلا إلى إدانة برىء .

* * *

وجرى العمل على أن تتم مرافعة الادعاء المدنى قبل مرافعة الدفاع ولكن بريبه طلب أن يعقب على مرافعة الدفاع على أن يكون للدفاع الكلمة الأخيرة على كل حال . فترافع الأستاذ شيه ديستانج محامى لارونسيير :

« كانت محاكم التفتيش — فى عهدها المظلم — تدين بمبدأ أن كلما كانت الجريمة فظيعة ضعفت الحاجة إلى أدلة قوية لإثباتها وهو مبدأ يبدو لنا غريباً وخطراً . ولكننا جميعاً — دون أن نحس — نخضع له . فحين تروى انا تفاصيل جريمة شنيعة — كتلك التى ترن أصداؤها بين جدران هذه القاعة — نجد أنفسنا — دون وعى أو تفكير — نتحمس ضد المتهم .... وهذا ما حدث لى حين طلب إلى الجنرال لارونسيير أن أدافع عن ابنه . فقد رفضت بشدة وقلت له إن أسعد يوم فى حياتى هو أن يعهد إلى بالمطالبة بعقابه .. ولكننى بعد دراسة دقيقة لجميع الظروف والوقائع آمنت بأننى أخطأت فى تسرعى ، وأن واجبى يقضى على بالوقوف إلى جوار هذا المتهم . وكل ما أطلبه منكم — أيها السادة

حلفين — أن لا تفعلوا ما فعلته — وما أقر لكم بأنني كنت مخطئاً فيه — ن تنصتوا إلى بدون عطف . ولكن بدون حقد» .

ثم أخذ يحدثهم عن ماضي المتهم وأخطائه . ويبررها بقسوة والده ليه ، مما جعله إذا استدان — ككل الشبان — يخشى أن يفضى لأبيه ، إذا أحب — شأن كل الشبان — أخفى ذلك عن أسرته . وروى لهم كيف نفاه أبوه في جزيرة نائية وهدده — بعد أن عاد وتاب وأناب — بأنه يتبرأ منه عند أول هفوة أخرى .. وهو مع ذلك ضابط نظيف كما تدل لى ذلك شهاداته الدراسية وشهادات رؤسائه المتعاقبين .. لقد استدان ، كانت له خليلة أو اثنتان . فهل هذه أمور لا تغتفر لمن كان في سنه ؟؟

وتساءل إن كان بين الموجودين من يصدق أن ضابطاً شابًّا ، ه أخطاء يسعى ليغفرها له قائد مدرسته . يدعى إلى شرف الجلوس لى مائدة بجوار ابنة هذا القائد ، فيكون حديثه لها أن يقول — كما تدعى ارى — « إن أمك جميلة ومن أسف أنك لا تشبهينها » ؟؟؟

وماذا ، يا ترى ، يكون الباعث ليرسل لارونسيير خطابات التهديد؟ الوا إنه وقع في غرام مدام موريل . ترى ما مظاهر هذا الغرام ؟ لقد دعى نزل الجنرال ثلاث أو أربع مرات . فهل تحدث إليها بهذا الغرام ؟ هل إذا لم يتحدث بلسانه فضحته عيونه ؟ إن مدام موريل لم تقل ذلك ، المرأة لا تخفى عليها نظرات المحب الولهان .

ثم ناقش الخطابات المنسوبة إلى لارونسيير وبيّن أنها لا تصدر عن محب .

لعل الباعث هو الرغبة في أن يتزوج بمارى . وهو باعث له قيمته لأن مارى غنية . ولكن لارونسيير بعد ثمانية أشهر من الحبس الاحتياطي بعد أن أخذ يقدح زناد فكره أثناء وحدته باحثاً عن الباعث لتوجيه هذا الاتهام إليه ، قال لى « لعلهم أرادوا إرغامي على الزواج من ابنتهم ! »

ودافع عن تقرير الخبراء وقال إن الخبراء غير معصومين من الخطأ ولكن الخبير قد يخطئ فى نسبة توقيع لصاحبه . ولكن إجماع الخبرا بعد أن فحصوا العشرات من الخطابات لا يتصور فيه الخطأ .

وناقش الاعتراف المنسوب إلى لارونسيير ونسبه إلى رغبته فى تكذ الخبر عن والده ، وأن يسدل الستار على الحادث — وإن لم يكن له أى شأن فيه . ثم تساءل كيف يمكن تفسير خطابات التهديد التى استمرت بعد الاعتراف ؟ وبعد سجنه ؟

لقد أثبت لكم أن لارونسيير لم يكتب تلك الخطابات ، وأثبت الخبراء أن الخطابات بخط مارى موريل ، فلنطو صفحة خطابات التهديد وننظر فى ذلك الاعتداء الذى قيل إنه وقع على مارى موريل .

إنه اعتداء مادى لم يدبر فى الخفاء كما تدبر الجرائم ، ولكنه دبر ورتب فى وضح النهار ضد أسرة كاملة . فلم يكن لدى الأسرة أى شك فى أن اعتداء يدبر على ابنتهم . بذلك كانت تنطق خطابات التهديد فماذا فعلت الأسرة لحماية ابنتها ؟ لاشك أن الحراسة حولها ستكون شديدة ولكن لا . إن مارى تركت بمفردها مع مربيتها التى لا تكاد تكبره سنًا .

لقد أثبت لارونسيير أنه كان فى المسرح فى ليلة الاعتداء واستشهد بشهود أيدوه ، بل ورأى الجنرال موريل ورآه الجنرال بالمسرح . وقال إنه اتجه من المسرح إلى منزل صديقته وقضى ليلته بجوارها ، وشهدت هى بصحة ذلك .

وتعالوا معنا إلى واقعة الاعتداء كما ترويها مارى . ماذا كانت تفعل الآنسة ألن أثناء الاعتداء المزعوم ؟ لقد كانت نائمة . إن بينها وبين غرفة مارى باباً غير محكم الإغلاق ، ولكنها نائمة ! كسر الزجاج وفتح

الشباك . وهى لاتزال نائمة ! وقفز المعتدى من النافذة إلى غرفة مارى وجرى يغلق الباب . وألن لاتزال نائمة ! وأخذ المعتدى يروح ويغدو فى الغرفة ووقع التماسك والضرب والطعنات والتهديد ، ولكن لا شئ « يوقظ الآنسة ألن » ! إذن ذلك كله حدث فى سكون الليل ، ولكن الآنسة ألن لم تسمع شيئاً . إنها نائمة ... أقول لكم إنها نائمة !

ولكنها تستيقظ بعد أن يكون كل شئ قد انتهى . الآنسة ألن ... إن الجريمة ترتكب تحت سمعك ، وبصرك ، ولكنك لا تتحركين ! يا آنسة ألن ، إننى لا أصدقك . إن الأمور لا يمكن أن تكون قد جرت كما تزعمين .

* * *

وما الذى فعلته مارى بعد هذا الاعتداء الفظيع الذى وقع عليها ؟ إن لنا جميعاً بنات وأخوات . ما الذى نتصور أن تفعله إحداهن — لا قدر الله — إذا وقعت فريسة لمثل هذا الاعتداء . فتاة طاهرة بريئة تدرس القراءة والكتابة فى صفحات الإنجيل . إن أول ما تفعله أن تجرى إلى ذراعى أمها . أن تسارع إلى أحضانها . ولكن لا ... إن الآنسة موريل تفضل أن تنتظر حتى الصباح ، كأن أمراً خطيراً لم يحدث لها ! إنها لا تطلب أمها ولا تجرى إليها . بل تتجه إلى النافذة لتزعم أنها وجدت لارونسيير يتجه بنظره ويقهقه فى شماتة !

* * *

ويقع هذا الاعتداء الفظيع على الفتاة البريئة وتقرر أسرتها التكتم على الحادث . فليكن . ولكنها بعد أربعة أيام من الحادث ترتدى ملابس السهرة وتتزين لتشترك فى الحفلة السنوية وتشارك فى الرقص . لقد اعتدى عليها فى ذراعيها وفى فخذيها وصدرها . وملابس الرقص لا تغطى الذراعين وتكشف الصدر . فكيف أخفيت الجروح والكدمات ؟ وقيل إنها طعنت

فى فخذيها بآلة حادة . فكيف قويت أرجلها على الرقص ؟ !

* * *

قد تتساءلون كيف أن مثل هذه الفتاة التى ربيت تربية دينية وتعلمت على صفحات الإنجيل تخترع كل هذه الأكاذيب ؟ ألا يمكن أن تقع فى يد مثل هذه الفتاة رواية من الروايات فقرأتها بشغف من وراء أمها — ولأنها لم تعتد مثل هذه القراءات ، ولأنها بطبيعتها سريعة الانفعال ، تأثرت وأرادت أن تمثل دور فتاة الرواية ؟

إننى مؤمن بعد كل ما شرحته لكم من متناقضات واستحالات أنكم لن تدينوا لارونسيير بشهادة مارى موريل وحدها .

* * *

ولم تخرج مرافعة النيابة ومرافعة بريبه عما قاله أوديون بارو . وعقب عليهما شيه ديسانج فكرر حججه وختم تعقيبه بفقرة هى دستور رسالة المحاماة يستشهد بها جميع الذين كتبوا عن المحاماة قال :

« إن لارونسيير برىء . أقول لكم ذلك وأؤكده مؤدياً هنا رسالة تتطلب بعض الشجاعة .

« وأعترف لكم أننى ترددت أول الأمر فى حمل عبئها . ولكنه عمل شريف . . دعونى أقل لكم إنه عمل شريف ، وحق مقدس للمحامى أن يتولى قضية ضد الرأى العام المضلل فيدافع عن متهم يطلبون القضاء عليه بتهم باطلة . وأن يقف فى وجه الذين يحكمون بدون علم ، ويقضون بغير معرفة ، ويحيطونه بشكوكهم لأنهم لا يعرفون رسالة الدفاع .. تلك الرسالة الشريفة المقدسة ، رسالتنا حين نجد رجلا بريئاً قد هجره أهله وتنكر له أصدقاؤه ، ولعنه الناس جميعاً ، فيقف المحامى إلى جانبه يدافع عنه كما يقف القسيس إلى جوار المحكوم عليه ، فيسير إلى جانبه وسط صخب الجماهير حتى سلم المشنقة . ذلك ما أنا فاعله .

إنني أسلمكم هذا الرجل بريئاً مطهراً وسط سخط الجاهلين . وأنتظر منكم له إما الحياة وإما « الموت » .

* * *

وقام رئيس المحكمة بتلخيص وقائع الدعوى . وناقش أدلة الاتهام وأدلة البراءة . ولو لم يكن المحلفون مخدوعين بمظاهر « الضحية » لأدركوا أن رئيس المحكمة يطلب منهم أن يقضوا بالبراءة . ولكن المحكمة كانت فى واد والمحلفون فى واد آخر كما يقولون ، فقرروا الإدانة وأصدر القاضى على كره منه — حكم القانون وهو يقضى بالسجن الانفرادى مع الأشغال الشاقة عشر سنوات .

وقال القاضى لكاتب الجلسة وهو يوقع على مسودة الحكم : « وددت لو أن يدى قطعت ولا أوقع على هذا الحكم » ، ولم يكتف القاضى « فيرى » بهذا الاحتجاج الصامت ، بل انتقل بنفسه إلى وزارة العدل وقابل وزيرها وشرح له خطأ المحلفين ، فسمع من الوزير كلمات طيبة ولكنه لم يفعل شيئاً . ذلك أن أسرة موريل كانت ذات نفوذ كبير وفى براءة لارونسيير تلطيخ لسمعة ابنتها .

وجاء وزير عدل جديد فأعاد رئيس المحكمة مساعيه لديه إرضاء للعدالة وإراحة لضميره ، ولكن القوى الخفية التى منعت الوزير السابق من اتخاذ قرار تغلبت على خلفه .

* * *

ثم بدأ الرأى العام يشك فى عدالة الحكم .. وتولت الصحافة بدورها مساندة الرأى العام فى طلب إعادة النظر فى القضية .

كتب اللورد إبينجر الفقيه الإنجليزى الكبير إلى الجنرال لارونسيير يقول له « إن تلخيص القاضى كان مثالا للبلاغة القانونية والحيدة وقوة

العارضة . وما لم أكن مخطئاً خطأ فاحشاً فإنه واضح جدًّا أن رأيه كان متجهاً إلى البراءة » .

ومثلت على مسرح بروكسل رواية بعنوان « قضية لارونسيير » خاتمها إعلان البراءة .

وكتب لورد إبينجر مرة أخرى بحثاً نشره بيّن فيه بعد دراسة عميقة لجميع أوراق القضية استحالة إدانة لارونسيير .

ودرس الدكتور ماتيي وهو طبيب ألماني نفساني القضية ، وبين أن ملاحظات الأطباء الفرنسيين عن حالة مارى موريل العقلية لم تتعمق التعمق الكافي ، وأنه من الواضح وضوحاً لا يحتمل الشك أنها هستيرية ، وإنها خلقت القضية كلها من خيالها المريض ، ولعبت دوراً أساسيًّا أدخلت به الحيرة على كل من كانوا حولها ، شأن المرضى بهذا المرض العقلي .

وفي عام ١٨٤٣ — أي بعد أن قضى لارونسيير ثماني سنوات في العذاب الأليم — أصدر الملك لويس فيليب عفواً عن المدة الباقية من العقوبة .

وفي عام ١٨٤٩ — أي بعد أربع عشرة سنة من الحكم جاء أوديون بارو وزيراً للعدل . وكانت إدانة لارونسيير تثقل ضميره . فدعا إليه الأستاذين بريبيه وشيه ديستانج وأطلعهما على دخيلة نفسه . فأقراه . وقال بريبيه إن الحكم على لارونسيير أوجد في نفسه ندماً كاد ينقلب إلى تأنيب الضمير ، وقدم الوزير تقريراً مفصلا مدعماً بالحجج وبذلك استصدر عفواً شاملا عن لارونسيير

وعينت الحكومة لارونسيير في وظيفة أكبر وأخذ يتدرج في الوظائف الكبيرة حتى انتهى حاكماً لإحدى المستعمرات .

* * *

واستقال الجنرال موريل عقب الحكم . ويقول الذين حضروا وفاته
ن قضية لارونسيير كانت تقض مضجعه .

وتزوجت مارى من أحد رجال السلك السياسى ، وتنقلت فى عدة
ـان ، ولم يبد عليها الندم فى أى وقت من الأوقات على الجريمة التى
كبتها .

أما ديستول ، الذى شارك ولا شك فى الجريمة فقد أنهى حياته
عباً فى أحد الأديرة الأرمنية بسوريا .

النقر على جدران السجن !

القانون الجنائى الإنجليزى يبيح للمتهم أن يكونوا شهوداً فى قضيتهم بعد حلف اليمين . وإذا اقتنع ممثل الاتهام بأقوالهم جازت براءتهم .

كانوا ثلاثة أصدقاء : « جيمى » ، و« لن » و« آرثر » ، وكانت أعمارهم تتراوح بين ٢٣ و٢٨ سنة . جمع بينهم ما يجمع الطيور التى على أشكالها تقع ، كما قال الشاعر . فأولهم « جيمى » قضى خمس سنوات فى السجن ، ولم يمض على خروجه منه إلا ستة أشهر ، والاثنان الأخران سبق لهما تذوق طعم السجون ، ولهما مع البوليس جولات .

وكان الأصدقاء الثلاثة معروفين للبوليس ، ولكنهم — فى تلك الليلة — لم ينتووا شرًّا ولم يرتكبوا جرماً ، بل أمضوا ليلتهم فى عربة بريئة ، ثم استقلوا سيارة أحدهم ، ماركة « ولسلى » السوداء للرصو إلى منازلهم ، فقد كان كل واحد منهم يقيم فى ضاحية من ضواحى لندن .

وليست هناك أية جريمة فى ركوب سيارة فى الساعة الرابعة صباحاً فى طريق عام . ولكن إذ كان الراكبون ممن سبق أن سببوا متاعب للبوليس فإنهم يوجسون خيفة من أن يقابلهم أحد رجال البوليس و يدس أنفه فيما لا يعنيه ، فيسألهم من أين جاءوا ؟ وإلى أين يقصدون

باذا كانوا يعملون ؟ وماذا ينتوون ؟ وغير ذلك من الأسئلة المحرجة ، فإذا ختلفت أقوالهم كانت الطامة الكبرى وألبسهم البوليس تهمة من حيث يدرون !

مرت هذه الأفكار بالأصدقاء الثلاثة ، فرأوا أن يتخذوا الحيطة لذلك ، بأن يتفقوا على رواية واحدة يقولونها إذا استوقفهم أحد رجال بوليس ، وتصوروا أنهم لو قالوا الحقيقة ، وهى أنهم خرجوا لمجرد مربدة فإن ذلك لا ينطلى على البوليس ، فقد تكونت لدى البوليس كرة ثابتة راسخة ، هى أن أمثالهم لا يجتمعون إلا لارتكاب جريمة .

لذلك اتفقوا على أن يقولوا — إذا سألهم أحد رجال البوليس — إنهم بروا كسر خزانة حانوت مجوهرات يعرفونه ، وإنهم حين وصلوا إليه ، جدوا به حارساً فعادوا أدراجهم قانعين من الغنيمة بالإياب .

* * *

وصح ما توقعوه . فقد شاء حظهم العاثر ، أن يقفوا بسيارتهم ام إحدى مقاهى الطريق ، وإذا برجلين من رجال البوليس السرى تربان من السيارة ، ويبدآن فى التحدث إليهم . وبالرغم من أن رجلى وليس لم يفصحا عن وظيفتهما ، فقد عرفهما الأصدقاء الثلاثة وجسوا شرًّا .

ولم تقنع إجاباتهم رجلى البوليس ، فطلبا منهم أن يصحبوهم إلى ر البوليس .

* * *

وهناك علموا أن ثلاثة أشخاص يركبون سيارة سوداء ماركة ولسلى » — من نوع السيارة التى يركبونها — قد اعتدوا فى مدينة (مارلو) لى أحد رجال البوليس ، بكرسى ومضارب جولف وأحدثوا به خمساً لاثين إصابة ، وتركوه بين الحياة والموت .

لقد أكدوا للبوليس أنهم لم يذهبوا إلى مدينة (مارلو) وأنه لا علم لهم بهذا الشجار ، ومع ذلك احتجزوهم حتى صباح الغد ، ليستجوبهم رئيس البوليس . وبعد أن استجوب الرئيس كلا منهم على انفراد ، لم يجد أى دليل يدينهم ، فاستدعاهم مجتمعين ، وقال لهم إنه لا دليل ضدهم « بعد » إلا وجودهم فى سيارة ولسلى سوداء فى الساعة الرابعة صباحاً فى الطريق العام ، وهو لذلك يخلى سبيلهم .

* * *

ركبوا سيارتهم وانصرفوا ، ولكن قبل أن يتفرقوا أخذوا يتدبرون أمرهم إن رجل البوليس المعتدى عليه لابد أن يكون قد قضى نحبه ، فخمس وثلاثون إصابة بالكراسى ومضارب الجولف ليست بالأمر الهين والبوليس لا يتساهل فى الاعتداء على أحد رجاله ، وعدم ثبوت التهم « بعد » لن يحول دون تدبير البوليس لأدلة ضدهم ، خصوصاً وأنهم من أصحاب السوابق !

لابد لهم إذاً من إثبات أنهم لم يكونوا موجودين بمكان الحادث وقت ارتكابه ، وليس يكفى فى ذلك أن يقول ثلاثتهم رواية لا يؤيدها شهود آخرون .

فاتفقوا على دفاع معين يدلون به أمام محكمة الجنايات إذا ما وجهت إليهم التهمة ، ثم انصرف كل منهم إلى حال سبيله .

* * *

ومع بزوغ شمس اليوم التالى طرق البوليس باب مسكن آرثر للقبض عليه كما قبض على جيمى ، أما « لن » فلم يعثر عليه فى العنوان الذى كان قد أعطاه للبوليس ، ولكن ذلك لم يمنع من القبض عليه فيما بعد ، ووجهت التهمة إلى ثلاثتهم بأنهم قاموا بالاعتداء على الكونستابل « سيسيل باى » وأن حالته تنذر بالخطر !

وأمضى المتهمون — بجريمة لم يرتكبوها — فترة رعب وقلق بين جدران السجن . لقد كانت التهمة الموجهة إليهم هى الاعتداء على الكونستابل بالضرب ، ولكن الوهم صور لهم أن الكونستابل لن ينجو من إصاباته ، وتراءى لهم حبل المشنقة يلتف حول أعناقهم !

* * *

ومثلوا أمام محكمة الجنايات .

ونودى على الشاهد الأول فإذا به المجنى عليه الكونستابل « سيسيل باى » الذى كان قد شفى من جراحه ! وعندها تنفس المتهمون الثلاثة الصعداء ، وقالوا فى سريرتهم إنه قضاء أخف من قضاء ، فقد نجوا من الإعدام ، وإن كانت أية عقوبة توقع عليهم ستكون عقوبة ظالمة .

شهد المجنى عليه أنه كان يقوم بدوريته فى مدينة مارلو ، فسمع ضجيجاً خلف إحدى المقاهى فذهب يتبين ماهيته . فإذا برجل يتجه نحوه من خلف سيارة ولسلى سوداء ، ويلقى عليه جسماً صلباً لم يتبينه ولم يصبه . وما كاد يستدير حتى تقدم نحوه اثنان آخران بيد كل منهما مضرب جولف ، فوجه إليهما مشعله وانسحب القهقرى ، متجهاً إلى كشك تليفون بجوار مكتب البريد محاولا أن يطلب نجدة . ولكن الرجلين لحقا به ، وأخذا يكيلان له الضربات ، وبدأ الدم يسيل على وجهه ، واستطاع بصعوبة أن يفتح باب الكشك ، وحاول الإمساك بسماعة التليفون ، ولكن الاعتداء عليه استمر ، وكل ما استطاعه هو الضغط على زر جرس النجدة ، ولم يتوقف الاعتداء عليه إلا عند سماع نفير سيارة النجدة !

وتقدم ثلاثة شهود ممن يسكنون أمام مكتب البريد فقالوا : إن صوت نفير سيارة النجدة أيقظهم من النوم ، وأنهم رأوا الاعتداء ، ولكنهم لم يتبينوا ملامح المعتدين ، وإن كانوا قد رأوا أن أحدهم يضع على

رأسه قبعة من نوع خاص ، وأنهم ركبوا سيارة ولسلى سوداء وفروا به قبل وصول سيارة النجدة .

وشهد أحد مفتشى البوليس ، أنه وجد بمكان الحادث كرسيٌّ ومضرب جولف مكسوراً .

كذلك شهد رئيس البوليس الذى تولى التحقيق ، أنه بمجرد علمه بالحادث ، أصدر أمراً بمراقبة جميع الطرق الموصلة من (مارلو) إلى (لندن) بحثاً عن سيارة ولسلى سوداء ، وأنه بعد القبض على المتهمين عرض صورهم الفوتوغرافية بين سبع عشرة صورة أخرى ، على الكونستابل باى الذى تعرف — من الوهلة الأولى وبغير تردد — على صور اثنين من المتهمين !

وشهد رجلا البوليس اللذان تعرضا للمتهمين فى سيارتهم ، أنهما فتشا السيارة ، فوجدا بها قبعة من النوع الذى وصفه الشهود وعليها بقع اعتقدا أنها دموية . وقد عرضت القبعة على الطبيب الشرعى ، فقال إنه تبين أن البقع التى على القبعة هى بقع دموية ، ولكنه لم يستطع أن يتحقق من فصيلتها !

وشهد رجل البوليس الذى ألقى القبض على « آرثر » أن آرثر قال له . إنهم لم يذهبوا إلى مدينة « مارلو » لأنهم كانوا فى « واتفورد » بقصد سرقة خزانة حديدية ، وعدلوا عن ذلك حين وجدوا أن خفيراً كان يحرس الخزانة ! وكان ذلك هو الدفاع الأول الذى اتفقوا عليه ، والذى عدلوا عنه ، ولكن الظاهر أن آرثر فى ارتباكه حين القبض عليه ، نسى أنهم عدلوا عن هذا الدفاع إلى دفاع آخر !

والقانون الجنائى الإنجليزى يبيح للمتهمين أن يكونوا شهوداً فى قضيتهم ، فيدلوا بأقوالهم بعد حلف اليمين . فإن أدلوا بأقوال تبدو صادقة ،

سمدوا لاستجوابهم أمام ممثل الاتهام، جازت براءتهم.

* * *

وجلس المتهمون الثلاثة — كل بدوره — على كرسى الشهود ، قسموا اليمين ، وأدلوا بدفاع جديد كانوا قد اتفقوا عليه .

قالوا إنهم أمضوا ليلة الحادث فى مدينة (أشفورد) حيث يقيم جيمى، نهم أمضوا فى منزل جيمى من الساعة العاشرة مساء حتى الثالثة والنصف مباحاً ، يتفقون على صفقة فحم .

وتقدم الدفاع عنهم بسيدة من سكان (أشفورد) ، أقسمت اليمين ، شهدت أن زوجها كان حاضراً ذلك الاجتماع ، وكان يتحدث إلى لاثتهم طوال تلك الساعات الطوال .

كما جاء شاهد آخر — من سكان المدينة — يشهد أنه رأى سيارة لسلى سوداء واقفة أمام منزله حتى الساعة الثالثة صباحاً ، ثم ركبها لاثة رجال أحدهم « جيمى » ... تعرف عليه من صوته ..

* * *

وإثبات عدم الوجود فى محل الجريمة وقت ارتكابها — وهو ما يعرف ى القانون الإنجليزى « بالأليبى » — هو أقوى دفاع يمكن أن يتقدم به تهم ، وهو دفاع قاطع ، ولكنه سلاح ذو حدين .. إنه أشبه بتلك لقطعة الخشبية المعقوفة التى يستعملها سكان أستراليا الأصلاء فى صيد لطير ، فهم يقذفون بها الطير فترسم دائرة فى الهواء ، وترتد إلى حيث ميت . إذا أصابت الطير صادته وإذا لم تصبه أصابت راميها ! ذلك شأن « الأليبى » إذا لم يقنع المحلفين انقلب إلى دليل إدانة !

ولم يقبل هذا الدفاع فى حالة متهمينا ، لتناقضه مع أقوالهم السابقة ، أدانهم المحلفون ، وأصدر القاضى حكمه على « لن » بالسجن عشرة عوام وعلى آرثر بسبعة وجيمى بأربعة .

* * *

ووجد الرجال الثلاثة أنفسهم فى السجن ، محكوماً عليهم بمد لا يستهان بها لجريمة لم يرتكبوها ، وأخذت تتناوبهم مشاعر مختلفة لقد نجوا من حبل المشنقة الذى كانوا سيتدلون منه حتماً لو لم يشف الكونستابل من جراحه ، فهم حامدون شاكرون سعداء بتلك النجاة ولكنهم حانقون فى ذات الوقت ، لأن الأشخاص الذين ارتكبوا الحادث أحرار طلقاء ، يتنسمون عبير الحرية بينما هم بين جدران السجن ، ولا سبيل لهم لرد الظلم الذى وقع عليهم وتصحيح الخطأ الذى ارتكبه القضاء !

* * *

يئسوا واستسلموا لمصيرهم ، ولكن أناساً — خارج السجن — لم ييأسوا

كان مخدوم « آرثر » أحد الذين لم ييأسوا ، إنه يعرف أن آرثر إنسان هادئ ، وقال فى شجاعة إنه موقن أنه لا يمكن أن يرتكب الاعتداء المنسوب إليه ، وكان هذا أيضاً رأى أسرة آرثر ، وخاصة أخته وزوجها .

لذلك لجأوا إلى محام شاب ، درسوا معه أوراق القضية ، وتبينو أن عملية التعرف لم تكن سليمة ، فإن مما لا يقبله العقل ، أن يكون المجنى عليه — فى حالة وقوعه تحت هجمات ثلاثة أشخاص — قد استطاع أن يتبين ملامحهم . فالاعتداء لم يستغرق إلا بضع ثوان ، كان المعتدى عليه فى أثنائها مشغولا بحماية رأسه من الضربات فلا يتصور أن يستطيع أثناءها إضاءة مشعله ، وإن أضاءه فلا يستطيع تبين ملامح الوجوه ، وإن استطاع ، فإن خمساً وثلاثين ضربة على رأسه ، كفيلة بأن تطير تلك الملامح من ذاكرته .. فضلا عن أن الاستعراف قام عن طريق التصوير الفوتوغرافى الذى كثيراً ما يخدع !

فإذا استبعدنا الدليل المستمد من الاستعراف — والعدل يقتضى

استبعاده — لم يبق من دليل إلا ضعف الدفاع الذى لم يثبت براءتهم. والقول بأن ضعف الدفاع ، دليل إدانة ، يقضى على الأساس الأول لكل محاكمة، جنائية — وخاصة فى القانون الإنجليزى — وهو أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته .

* * *

قدم المحامى الشاب مذكرة — تشرح كل هذه الاعتراضات — إلى لجنة الدفاع عن الحريات المدنية ، التى تبنت الموضوع ، وكتبت بذلك إلى وزير الداخلية . ولكن وزراء الداخلية فى إنجلترا لا يقدمون بسهولة على اتخاذ قرار فى مثل هذه الحالة . فمن وجهة نظرهم يقولون : لقد حوكم المتهمون محاكمة عادلة ، وسمع دفاعهم ، وشهد ضدهم شهود عدول أقسموا اليمين ، وقرر المحلفون إدانتهم ، وأصدر القاضى حكمه ، والأحكام — كما يعرف الناس — هى عنوان الحقيقة .

لذلك لم يحرك وزير الداخلية ساكناً . وقضى على كل أمل للمتهمين وللمدافعين عنهم .

* * *

ولكن النجدة جاءت من بين جدران السجون !

فى السجون — فى جميع أنحاء العالم — نظام خاص للمراسلة .. هو النقر على الحيطان ... فصلة المسجون تنقطع عن العالم الخارجى ولكنها مهما اتخذ من احتياطات — لا تنقطع عن زملائه المسجونين .

وأخبار المسجونين تنتقل من زنزانة لأخرى ، ومن سجن لآخر ، بطريقة النقر هذه . وهكذا وصل إلى علم المسجونين ، أن أصحابنا الثلاثة يقضون فى السجن عقوباتهم بسبب الاعتداء الذى حدث فى بلدة (مارلو) .

ووصل خبر ذلك إلى أسماع مسجون اسمه « وليام بوردى » يقضى

أربع عشرة سنة محكوماً عليه بها ، لارتكابه سرقة كيس بريد .

وأحس وليام بيردى بضميره يؤنبه ، فهو يعلم أنه واثنين من شركائه فى جريمة سرقة كيس البريد ، هم الذين ارتكبوا جريمة بلدة (مارلو) . وقد توفى أحدهما ، والآخر لايزال يقضى مدة العقوبة المحكوم بها عليه.

طلب « بيردى » أن يقابل مأمور السجن ، واعترف له اعترافاً كاملا بارتكابه هو للجريمة ، ومثل هذا الاعتراف لا يؤخذ عادة على محمل الجد ، فإن بيردى يعلم — ولاشك — أن العقوبة المحكوم بها عليه تجب عقوبة الاعتداء على الكونستابل ، فاعترافه هذا لا يضيره ، وقد يكون المقصود منه إفلات مسجون آخر من السجن ، فالمجرمون يتبادلون أحياناً أمثال هذه الخدمات .. ولكن التفاصيل التى أدلى بها بيردى حملت مأمور السجن على إحالة اعترافه إلى وزير الداخلية . وهذا بدوره أحاله على رياسة البوليس فى (باكنجهام شير) لفحصه .

وتولى الفحص أحد مفتشى البوليس المعروفين بالدقة والكفاية ، واستغرق البحث ثلاثة أشهر ، استجوب فيها مفتش البوليس أكثر من مائة شخص ، وقدم تقريراً لم يدع مجالا للشك فى أن بيردى وزميليه ، هم الذين ارتكبوا حادث الاعتداء على الكونستابل « باى » .

وهكذا صدر عفو شامل عن الأصدقاء الثلاثة ، بعد أن قضوا فى السجن سنتين . ومنحت الحكومة أربعمائة جنيه تعويضاً لآرثر وثلثمائة جنيه لكل من زميليه !

واعترض عدد من أعضاء مجلس العموم على هذا التعويض الذى لا يتناسب مع ما تحمله الرجال الثلاثة من آلام وفقد للحرية . ولكن وزير الداخلية اجاب بأن التعويض يقدر على أساس مقدرة المحكوم عليه فى الكسب بطريق شريف من جهة ، وعلى تصرفه أثناء المحاكمة . وقال إنه سأل القاضى الذى أصدر الحكم ، فأكد له أن المحكوم عليهم يتحملون

مسئولية كبيرة فى الخطأ الذى وقع ، لأنهم أقسموا يميناً كاذبة على أنهم لم يكونوا فى مكان الحادث وقت ارتكاب الجريمة ، ووضح له وللمحلفين أن هذا الدفاع غير صحيح .

* * *

وأثارت هذه القضية اعتراضاً آخر — له وجاهته — على تعبير « العفو الشامل » الذى يصدر لصالح المحكوم عليهم بعد أن يثبت أنهم لم يرتكبوا الجريمة التى حكم عليهم من أجلها . وقال المعترضون إن هذا التعبير يعنى بأن الجريمة قد ارتكبت ، ولكن الملكة أصدرت عفواً عن فاعلها ، وليست هذه هى الحقيقة !

وقال وزير الداخلية — الميجر لويد جورج — إن البراءة التى تستصدر من الملكة بالعفو الشامل تصاغ بحيث تتجنب كل ما قد يفهم منه أن العفو صادر عن الجريمة ، بل ينص على إسقاط الإدانة ذاتها وما تستتبعه من نتائج قانونية .. أى أن العفو هنا ليس تسامحاً ، بل إسقاطاً للجريمة من أساسها ونتائجها القانونية .

أما المتهمون الثلاثة فلم يهتموا بهذه التفرقة اللفظية ، فقد كان كل ما يشغل بالهم هو أن أبواب السجن فتحت لهم ، وأنهم عادوا للحرية التى حرموا منها لغير ذنب جنوه .

النقر على جدران السجن

رب مصادفة شر من ميعاد !

قضية عمرها نحو مائتى عام ، ولكن المحامين أمام محاكم الجنايات الفرنسية يذكرون القضاة بها حتى الآن ، ليبعدوا عن موكليهم الخطأ القضائى الذى لايمكن إصلاحه !

« ليزورك » هو الاسم الذى يرد على لسان كل محامٍ أمام محكمة الجنايات يريد أن ينقذ موكله من حبل المشنقة ، فيقيم بينه وبين الإدانة شبح الخطأ القضائى الذى لا يمكن إصلاحه .

إنه من مواليد مدينة (ديويه) بفرنسا. بدأ حياته صبيًّا لدى أحد الصياغ ، ثم التحق بالجيش وحارب فى صفوف جيش الثورة الفرنسية ، وحين سرح من الجيش ، اشتغل بالتجارة وأثرى فترك مدينته وأقام فى (باريس) ، وفى انتظار تأثيث الشقة التى استأجرها ، أقام لدى ابن عم له يحمل نفس الاسم .

وكنا فى أواخر القرن الثامن عشر — وعلى وجه التحديد فى عام ١٧٩٦ ، أيام حكم الديركتوار ، حين كانت عصابات قطاع الطرق تعيث فى الأرض فساداً ، وقد وقعت بالقرب من (ليون) جريمة فظيعة إذ اعتدى خمسة أشخاص على عربة البريد ، وقتلوا قائدها ومساعده ونهبوا محتوياتها .

وكان « ليزورك » ككل مغترب ، كلما صادف أحد أبناء بلدته

فى باريس ، يتوق إلى التحدث إليه لمعرفة أخبار القرية ، وشاء له سو حظه أن يقابل بمحض الصدفة أحد أبناء قريته واسمه « جوسنو » فسار إلى جواره ، يتحدث إليه ، حتى وجدا أنفسهما أمام مقر البوليس الذى كان « جوسنو » يقصده ، ليتسلم أشياء له احتجزت هناك لشبهة كانت قد علقت به فى جريمة بريد (ليون) .

* * *

ولأن الحديث بينهما لم يكن قد انتهى ، طلب جوسنو من ليزورك أن يدخل معه إلى مقر البوليس ليتسلم أشياءه ، وهكذا دخلا غرفة المحقق الذى كان يتولى قضية بريد ليون ، وكان بها بعض شهود الحادث وكان صاحبانا فى أمان واطمئنان يتحدثان ، ولم يكد يرد على لسان « جوسنو » كلمة بريد(ليون) حتى أخذت اثنتان من الشهود تحدقان فيهما فى اهتمام وخوف ، دون أن يشعرا بهما .

* * *

ولنعد قليلا إلى الوراء . فقد كان المحقق الذى كلف بتحقيق الحادث الفظيع ، قد أرسل أعوانه يتتبعون خيط سير عربة البريد منذ تركت باريس حتى وقع الاعتداء عليها ، ويجمعون له المعلومات ، وقد تبين له أن شهوداً رأوا أربعة فرسان يتجهون إلى (ميلون) ويعودون منها ، وأنهم توقفوا أمام إحدى الحانات فأكلوا وشربوا ، وأن أحدهم أصلح مهمازه بأن ربطه بخيط استعاره من إحدى الخادمات ، وأنه رجل مديد القامة أشقر الشعر ، وأنه عاد بعد لحظة لاسترداد سيفه الذى كان قد نسيه فى حظيرة الخيل .

وشهد آخرون بأن شخصاً أجنبيًّا ركب بجوار سائق عربة البريد ، وأعطوا أوصافه .

وهكذا استنتج المحقق أن عدد القتلة أربعة ، وربما خمسة ؛ إذا

مفنا إلى الفرسان الأربعة ، ذلك الرجل الذى كان يجلس إلى جوار
ئد العربة .

وشهد حارس بوابة (رامبوييه) بباريس أنه رأى خمسة فرسان يدخلون
ريس فى الساعة الرابعة صباحاً ، وخيولهم تلهث ويتصبب العرق منها
ا يدل على أنها عائدة من مكان بعيد . ولما كان أحد حصانى عربة
ريد مفقوداً فقد ثبت لدى المحقق أن هؤلاء الخمسة هم القتلة ، وانحصرت
همته فى البحث عن تلك الخيول وراكبيها .

وأوصلت التحريات إلى علم البوليس أن شخصاً ترك فى الساعة
لخامسة صباحاً أربعة خيول تتصبب عرقاً فى حانة (أوبرى) ، وعاد
ى الساعة السابعة صباحاً ومعه شخص اسمه « برنار » فتسلماها ،
أن الشخص الأول اسمه « كوريول » ، وأنه يقيم مع سيدة اسمها
مادلين بريمان » — يظن أنها زوجته — وأنه لم يبت فى منزله فى ليلة
لحادث . وجد البوليس فى البحث عن كوريول وبرنار فاكتشف
ن كوريول اختفى لمدة أسبوع فى منزل شخص يدعى « ريشار »
ع صديقته ثم قصدا مدينة (تروا) فى عربة استأجراها من يهودى
سيئ السمعة اسمه « دافيد برنار » . وهكذا قبض البوليس على كوريول
وعشيقته ووجد معهما مبالغ طائلة من الفضة والذهب والجواهر وحوالات
لبريد .

فهو إذاً واحد من القتلة ، قد وقع فى قبضة العدالة .

* * *

وعند القبض على كوريول كان معه شخصان : « جوليه »
و « جوسنو » — الذى تحدثنا عنه ، والذى جعلته المصادفة السيئة يتقابل
مع ليزورك ، فقبض عليهما على سبيل التحرى ، خاصة وقد علم
البوليس أنه أقام لدى ريشار — وهو لا يملك فندقاً — فى فترة وجود

كوريول . ولكن البحث أثبت أن جوسنو وجولييه يتمتعان بسمعة طيبة لذلك اكتفى المحقق بأن نبه عليهما بأن يقدما أنفسهما إلى البوليس في باريس ، ووضع الأختام على الغرفة التي كان جوسنو يقيم فيها في منتزه ريشار دون فحص محتوياتها .

وركب جوسنو وصاحبه نفس العربة التي أقلت كوريول وشهود الحادث إلى باريس .

وتبين المحقق أن الشكوك التي تحيط بجوسنو لا تكفي لتوجيه أي اتهام إليه ، فأمر بتسليمه محتويات غرفته . وفي طريقه لاستلامها تقابل مع ابن بلدته ، « ليزورك » وهكذا وجدا في غرفة انتظار المحقق ، يلفتان نظر شهود الحادث بحديثهما عن جريمة بريد ليون .

* * *

ودخلت الشاهدتان غرفة المحقق ، وأكدتا له أن اثنين من القتلة موجودان بغرفة الانتظار . فأرسل المحقق يستدعي « جوسنو » وزميله الذي يجلس معه . ودخل « ليزورك » والدهشة تأخذ منه كل مأخذ إذ لا شأن له بالموضوع .. ولكن المحقق أجلسهما بجوار النافذة ، وأخذ يوجه إليهما أسئلته في عنف ، وبطريقة تدل على الشك فيهما ، في حين استمرت الشاهدتان تحدقان النظر إليهما .

وطلب المحقق من « ليزورك » أوراق هويته . فتبين أن ورقة الهوية التي يحملها ليست له بل لابن عمه ، وزاد في حرج موقفه أن تبين أنه يحمل أيضاً ورقة هوية بيضاء !

ولم يسع المحقق إلا أن يصدر الأمر بالقبض عليه وعلى « جوسنو » .

ولكن القاضي « دوبانتون » كان رجلا عادلا حصيفاً لم يأخذ « ليزورك » لمجرد توكيد الشاهدتين ، بل حقق معه طويلا ، وأثبت ليزورك أنه لم يفارق باريس في يوم الحادث وأشهد عدداً كبيراً من أصدقائه

العدول على صحة أقواله وحسن سيره وسلوكه ، وآمن المحقق ببراءة ليزورك وجوسنو ، ولكنه رأى أن يتمهل قليلا قبل إصدار قرار بحفظ الدعوى ضدهما ، أمام إصرار الشاهدتين أن « ليز ورك » هو الشخص الطويل الأشقر الذى كسر مهمازه .

* * *

أما كوريول فقد أخذت أدلة الثبوت تأخذ بتلابيبه .. شهدت ضده — من حيث لا تقصد — عشيقته ، وقالت إنه تغيب ليلة الحادث بطولها والليلة التى تليها ، ثم أرسل لها رسولا يطلب ملابس له وسألت الرسول عنه فوجدته عند شخص اسمه « دوبوسك » ، وقالت إنها قابلت برويير وريشار عدة مرات لدى عشيقها ، أما جوسنو فقد (زارته) مرة واحدة وإنها لا تعرف « ليزورك » ولم يسبق أن وقع نظرها عليه ، وإن السيف الذى وجد فى مكان الحادث ، وظن أنه سيف ليزورك هو لعشيقها ، كما أكد « برويير » وبرنار أنهما لا يعرفان ليزورك ولم يسبق لهما رؤيته ، فى حين أكد ريشار أنه رآه مرة واحدة مع أحد أبناء بلدته .

* * *

ولو بقى التحقيق تحت يد القاضى « دوبانتون » لانتهى حتماً إلى حفظ الدعوى بالنسبة لجوسنو وليزورك . ولكن كان مقدراً للخطأ القضائى أن يرتكب . فقد شاء الاختصاص القضائى — أو شاء سوء طالع ليزورك — أن يحال التحقيق إلى قاضى تحقيق مكان الحادث ، وهو رجل متأثر بفظاعة الجريمة التى ارتكبت ، واقع تحت تأثير الجو المحيط به ، يعتقد — كما هى عادة محققى الأرياف — أن الرأى العام فى القرية لا يخطئ ، وقد قيل له إن مرتكبى الحادث خمسة وهو يجد أمامه خمسة متهمين ؛ فلماذا يحمل نفسه البحث عن غيرهم ؟؟

فأسقط من حسابه جميع الشهود الذين شهدوا لصالح ليزورك وقدم القضية للمحكمة .

* * *

وتقدم شهود ليزورك بشهاداتهم لصالحه، بينما تردد الشهود ضده فى أقوالهم ، فأحدهم لم يتعرف إلا على « كوريول » . والثانى لم يتعرف على أى أحد من المتهمين . وقال الثالث إنه يعتقد (كذا) أن ليزورك أحد الثلاثة الذين رآهم ، ولكنه غير متأكد . وتعرفت شاهدة على « برويير » ، وقال شاهد رابع إنه ربما كان ليزورك أحدهم ولكنه غير متأكد لأن الوقت كان ظلاماً . ولكن الشاهدتين أكدتا أنهما تعرفتا على ليزورك لشعره الأشقر .

ولكن رئيس المحكمة كان يعتقد أنه لابد من حكم رادع لوضع حد لجرائم قطاع الطرق ، فكان يعنف شهود النفى ويفسح المجال لشهود الإثبات ، ويستمع فى ملل لدفاع المحامين . ثم أقفل باب المرافعة ، وطلب إلى المحلفين أن ينتقلوا إلى غرفة مداولتهم .

* * *

وفى أثناء مداولة المحلفين تقدمت عشيقة كوريول إلى القاضى وقالت إن لديها معلومات خطيرة ، وقالت إن واحداً فقط من المتهمين هو المذنب وهو كوريول ، وإنهم على وشك أن يدينوا أبرياء ، وإن هناك شبهاً كبيراً بين ليزورك « ودوبوسك » زاد منه أن دوبوسك كان قد اعتاد أن يضع باروكة شقراء . ولو أن القاضى لم يكن متحمساً للاتهام ، لكان عليه — كما تحتم عليه رسالة القضاء — أن يفتح باب المرافعة ، ويقضى باستمرارها ، ولكنه أجاب أن الوقت فات للاستماع لأقوال جديدة .

وصدر الحكم بإعدام كوريول وليزورك وبرنار وبالأشغال الشاقة لمدة أربع وعشرين سنة على ريشار .

وغاض الدم من وجه ليزورك حين سمع النطق بالحكم ، ولكنه تحامل على نفسه ورفع يديه إلى السماء وقال بصوت واضح : « إن الاتهام الموجه إلى فظيع يستحق الإعدام ، ولكن اتخاذ القانون سبيلا لإعدام برىء جريمة أفظع ، وستظهر براءتى فى يوم من الأيام ، ويقع دمى على رأس المحلفين الذين أدانونى وعلى رأس القاضى الذى أثر عليهم » .

وصرخ كوريول : « إن ليزورك وبرنار بريئان ، فكل الذى فعله برنار أنه قدم الخيول . أما ليزورك فليس له أى يد فى الجريمة » . وذهب صراخه فى مهب الريح .

وأمام كاتب السجن وبحضور عدد من أقاربهم اعترف المتهمون بجريمتهم وأكدوا جميعاً براءة ليزورك .

وقدم ليزورك طعناً فى الحكم أمام محكمة النقض وشفعه محاميه بالتماس إلى الديركتوار .

* * *

وكأنما استيقظ ضمير كوريول ، أو ربما ساءه أن يعدم وحده ويفلت شركاؤه الحقيقيون من العقوبة ويتحملها وحده ، فتقدم إلى مأمور السجن وأكد له — فى محضر حرره المأمور — أن ليزورك وبرنار بريئان ، وكذلك ريشار ، وأن الشركاء الحقيقيين هما دوبوسك الذى يشبه ليزورك ، وفيدال الذى يشبه برنار ، وأن مادلين بريان تستطيع أن تدلى بمعلومات عنهما ، ووصف كيفية ارتكاب الجريمة وتفاصيل الاستعداد لها .

ولكن ذلك كله لم ينفع ، بل ذهب كصرخة فى واد ، لأن محكمة النقض محكمة إجراءات ، لم تجد فى أوراق القضية ما يعيب الحكم ، أو ما يبيح لها التعرض للموضوع ، فرفضت الطعن .

* * *

قدم محامى ليزورك التماساً إلى مجلس الرياسة « الديركتوار » الذى كان له حق العفو أو إبدال العقوبة . وكانت قضية ليزورك قد أصبحت الشغل الشاغل للرأى العام ، وتحركت ضمائر الكثيرين ، ودرس الديركتوار أوراق القضية واعتراضات محامى ليزورك على الحكم ، وقرر عرض الموضوع برمته على مجلس الخمسمائة ، برسالة يطلب فيها البت فى الموضوع بأسرع ما يمكن إذ كان التنفيذ قد تحدد له اليوم التالى ، وقرر مجلس الخمسمائة ، بناء على اقتراح عضوين من أعضائه ، تأجيل تنفيذ الحكم ، وتشكيل لجنة من ثلاثة أعضاء لدراسة الموضوع .

* * *

وانهالت الرسائل على الديركتوار تطالب ببراءة ليزورك ، ومنها رسالة من كوريول من أعماق السجن يقول فيها : « هل يراد منى أن أضيف إلى جرائم القتل التى ارتكبتها جريمة قتل بريئين هما ليزورك وبرنار . وهل يجوز لى أن آمل — على الأقل — أن يجرى البحث عن شركائى الأربعة ؟ » .

ومن الأسف أن اللجنة التى عهد إليها بالتحقيق ، تصورت أن الأمر لا يعدو اتفاقاً بين المحكوم عليهم وشركائهم فى الجريمة ، وأن الاستماع إلى هذه الأقوال تشكيك فى الأحكام النهائية ، التى هى عنوان الحقيقة — وأن فى قبول إعادة مناقشة قرار المحلفين هدماً لقواعد العدالة واقترحت رفض الالتماس .

* * *

وتقدمت عشرات من الاعتراضات على تقرير اللجنة ومذكرات تبين خطأ الحكم ، وكان أشد المعترضين القاضى دوبانتون — المحقق الأول للقضية — ولكن الجهود كلها ذهبت هباء وقررت أغلبية الخمسمائة رفض الالتماس .

* * *

ولما فقد ليزورك كل أمل ، استعد للتنفيذ وللقاء خالقه ، يشكو له ما حاق به من ظلم ، فودع امرأته وأولاده ، وقص شعره بيديه وجعل منه أربع خصل ، بعث بها لزوجته لها ولأولاده ، وأرفقها بخطاب لزوجته عنوانه « إلى أرملة ليزورك » يقول فيه إنه سيقتل بحكم من القضاء ، مع أنه برىء ! »

ثم كتب خطاباً مفتوحاً إلى « دوبوسك » طلب أن ينشر فى الصحف يقول فيه : « أنت يا من سأقتل بدلا منه إذا وقعت فى قبضة العدالة ، فاذكر ما سببته لى ولأولادى ولزوجتى من مصائب ، فلا تضف إلى عذابهم تشويه سمعة أبيهم البرىء » .

وفى ساعة التنفيذ قال كوريول وهو يصعد درجات المقصلة : « إننى مذنب ولكن ليزورك برىء » وقال ليزورك حين جاء دوره : « إننى أموت بريئاً . غفر الله لقضاتى ، وأتقدم راضياً لملاقاة القاضى الذى لا يخطئ » .

ولم يقتصر خطأ القضاء على إزهاق روح بريئة ، بل تعداه بحكم القانون إلى زوجته وأولاده ، فوضعت الحراسة على أملاكه ، وبيعت بثمن بخس لتسديد مطالب مصلحة البريد ، وأصيبت والدته وزوجته بالجنون ، وماتت أمه بحسرتها ولم تسترد زوجته صحة عقلها إلا بعد ثمانى سنوات .

* * *

ولم ييأس القاضى « دوبانتون » من إثبات براءة ليزورك حتى بعد تنفيذ الحكم ، واستطاع أن يعثر على « دوبوسك » مقبوضاً عليه فى قضية أخرى ، وهو الغريب الذى كان يركب بجوار قائد عربة البريد ، واستدعى مفتش البريد الذى كان قد تعرف على ليزورك؛

فهاله الشبه بينه وبين ليزورك ولكن « دوبوسك » تمكن من الهرب من السجن .

واستطاع دوبانتون أن يعثر بعد ذلك على « دوروشا » أحد المتهمين الآخرين . فاعترف له بتفاصيل الجريمة ، وأكد أنه اشترك فيها مع « روسى » ودوبوسك وكوريول وفيدال ، وأن برنار أعارهم الخيول ، وأنه سمع بأن شخصاً اسمه ليزورك حكم عليه فى تلك الجريمة ، مع أنه لا شأن له بها .

وقدم « دوروشا » للمحكمة وحكم عليه بالإعدام ونفذ فيه .

* * *

ثم قبض على فيدال وحوكم وأعدم هو الآخر بعد أن رفضت محكمة النقض طعنه .

ولم يبق إلا العثور على دوبوسك الذى ذهب ليزورك ضحية شبهه به . وعين القاضى دوبانتون مخبراً خاصاً استمر سنتين يبحث عنه حتى وفق إلى وجود عشيقته بباريس ، فأصدر أمراً بتفتيش منزلها وعثر فيه على أوراق عديدة لدوبوسك ، وعدد من جوازات السفر ، ومفاتيح وطقاشات ، ولكنها امتنعت عن ذكر عنوانه ، إلا أن البوليس عثر عليه ، وقدم للمحاكمة واعترف أكثر الشهود الذين شهدوا على « ليزورك » بخطئهم وأن الذى رأوه هو « دوبوسك » وليس ليزورك .

وحاول محامى « دوبوسك » أن يتخذ من الحكم الذى صدر ونفذ فى ليزورك دفاعاً عن موكله ، بدعوى سبق الحكم على ليزورك ولكن المحكمة لم تأخذ بهذا الدفاع ، وحكمت عليه بالإعدام ، وعلى عشيقته بالسجن المؤبد ، لإخفائها الأشياء المتحصلة من جناية قتل .

* * *

وجاء دور خامسهم — خامس القتلة الحقيقين — ووضعت العدالة

يدها عليه فى مدريد حيث اختفى تحت اسم مستعار وبدأ فيها صناعة لتنقية الزيت ، ينافس بها أحد رجال الصناعة من أبنائها . وأخذ منافسه يتقصى أمره حتى اكتشف حقيقته ، فأبلغ البوليس الفرنسى ، فحوكم وحكم عليه بالإعدام ، واعترف للقسيس بذنبه وشركائه وبأن ليزورك برىء ، وأعطاه وصية مكتوبة بخطه يؤكد فيها ذلك الاعتراف ببراءة ليزورك .

* * *

إزاء ثبوت التهمة على القتلة الخمسة ، وإدانتهم بأحكام نهائية ، ووضوح براءة ليزورك ، تقدم أخوه وأرملته بطلب إعادة المحاكمة . ولكن القانون الفرنسى — فى ذلك الوقت — لم يكن يسمح بإعادة المحاكمة إلا إذا تقدم المحكوم عليه نفسه بذلك الطلب ، وعارضت النيابة فى قبول هذا الطلب بحجة أن الطالبين لم يكونا طرفاً فى الدعوى ، وهكذا حال الشكل دون تحقيق العدالة ورد الظلم !

ولم تيأس أسرة ليزورك وقدمت التماساً للإمبراطور نابوليون ، أرفقته بمذكرة من القاضى دوبانتون محقق القضية الأول ، الذى بين ما فى القانون من مصادرة للعدالة ، ورغب نابليون أن يرفع ذلك الظلم ، وكلف كبير قضاته ببحث الموضوع ، وعهد كبير القضاة إلى أحد أعوانه بتقديم تقرير ، وعز على ذلك القاضى أن يقر بخطأ القضاء وقدم تقريراً مليئاً بالمغالطات يؤيد فيه حكم الإعدام .

وقدمت الأسرة نفس الالتماس إلى الملك لويس الثامن عشر فكان مصيره نفس المصير .

وفى عام ١٨٢١ قدمت أرملة ليزورك وابنتاها عريضة لمجلس البرلمان يطلبن استصدار تشريع يسمح بإعادة المحاكمة فى مثل هذه الحالات ، ولكن وزير العدل عارض بحجة أن المحكوم عليه ، لا وجود له ، وأن

القول بأن عار الحكم يمتد إلى أسرته قول هراء ، إذ أن العار لا يمتد من إنسان لأفراد أسرته ، كما لا يمد إليها ما ينال من شرف ، وأن للأحكام حرمتها ولا يجوز التشكيك فيها .

* * *

ولكن البرلمان لم يأخذ بهذا الرأى وطلب إحالة الموضوع لرئيس الوزارة ووزير العدل لإيجاد حل لهذه الصعوبة القانونية إذ قد تبين للبرلمان — بمجلسيه — أن براءة ليزورك لم تعد موضع شك ... ولكن وزير العدل تعصب لرأيه وقدم تقريراً أكد فيه أن الحكم على ليزورك كان صحيحاً . وبين محامى الأسرة فى مذكرة قدمها — أن واضع تقرير وزير العدل قد حشاه بأخطاء فى الوقائع وفى الأسماء وفى التواريخ ، وأنه يجب أن يستبعد ورأى وزير الداخلية — إلى أن يمكن التغلب على الصعوبة القانونية — أن يظهر عطفه على أرملة ليزورك ، فكتب لها خطاباً يعتذر فيه عن الخطأ الذى وقعت فيه العدالة ، وإن سماه فى خطابه « الحادث المؤسف » الذى ذهب ضحيته زوجها ، وقرر منحها إعانة شهرية . . كما قرر وزير المالية إلغاء الحراسة التى وضعت على أموالها ورد أملاكها إليها أو ثمن ما بيع منها ، وبلغت حصيلة ذلك كله ثلاثة أرباع المليون فرنك ، وهى ثروة طائلة فى ذلك الزمن ، تدل على أن ليزورك لم يكن قاطع طريق .

* * *

ويئست الأسرة من الحصول على حكم برد اعتبار عائلها من القضاء الجنائى ، فاتجهت إلى القضاء المدنى تطالب بتعويض من الحكومة عن الضرر المادى الذى حاق بها ، معتبرة أنها بحصولها على هذا التعويض تحصل على إقرار — ولو بطريقة غير مباشرة — بأن خطأ قضائياً قد ارتكب .

د طلبها عدد من كبار المحامين وحكم لها بالتعويض عام ١٨٣٨
ى بعد أكثر من أربعين سنة .

* * *

وفى عام ١٨٥١ تقدمت صغرى بنات ليزورك واثنين من أحفاده
ى المجلس التشريعى يطلبون إصدار قانون ببراءة ليزورك مادام القضاء
' يجد سبيلا لإقرارها ، وقدمت لجنة المجلس تقريراً أوضحت فيه
راءة ليزورك ، ولكن انقلاب نابوليون الثالث قضى على المجلس التشريعى
مته وأغلق آخر أمل للأسرة !

* * *

وتجدد الأمل حين صدر فى عام ١٨٦٧ تعديل فى القانون الفرنسى
بيح لأفراد الأسرة التى أعدم عاهلها ، أو حكم عليه خطأ أن
طعنوا فى تلك الأحكام أمام محكمة النقض ، وحدد القانون سنتين
النسبة للقضايا القديمة . وتقدمت حفيدة ليزورك لمحكمة النقض بطعن
ى حكم إدانة جدها ، واستند محاميها فى الطعن على أساس أن الحكم على
« دوبوسك » يتناقض مع الحكم على جدها ، وأن الثابت أن الذين
رتكبوا الحادث خمسة بينما أدانت المحاكم ستة من المتهمين مما يقطع بأن
حدهم برىء ، وأن البرىء هو ليزورك.

ولكن محكمة النقض بحكمها الصادر فى ١٧ ديسمبر ١٨٦٧ —
بعد سبعين عاماً من إعدام ليزورك — قالت إنه لم يثبت أمامها فى
الأوراق أن الذين ارتكبوا الحادث خمسة لا أكثر لأن أحداً لم يشهد
واقعة القتل ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الحكم على دوبوسك
يتناقض مع الحكم على ليزورك لأن دوبوسك حكم عليه بأنه الفاعل الأصلى
وأنه كان موجوداً فى مكان الحادث بينما ليزورك حكم عليه — بحسب

تعبير حكم الإدانة — باعتباره شريكاً وليس يتحتم على الشريك يكون موجوداً فى مكان الحادث .. ورفضت الطعن .

ولكن رفض الطعن هذا لا ينهض دليلا على أن ليزورك لم يه كضحية بريئة . ولايزال اسمه يجلجل فى محاكم الجنايات كلما أ محام أن يذكر القضاة بأنهم غير معصومين .

الحبّ القاتل !

برّأ المحلفون « سوجاريه » من جريمة قتل منافسه فى الحب ، ولكنهم أدانوه بجريمة قتل ماكانت لترتكب لولا مصرع المنافس.. أين الحقيقة ؟ من يدرى !

نحن فى عام ١٨٨٠ فى إحدى قرى فرنسا عند مصب نهر النيفل سمى (أسكين) . سكانها من البسك Basque المعروفين بسرعة الغضب حدة الطباع . ومن بينهم صاحب مطحن اسمه « سوجاريه » أكثر هل القرية ثراء . أعزب يعيش فى عزلة ، ويقيم فى مطحنه مع فتاة سمها « مارى نوبليا » تتولى شئونه المنزلية ، لا يُعرف عنها أى انحراف يلق . ولكن ألسنة السوء تتهمها بأنها عشيقة سوجاريه . وسواء صح هذا لاتهام أو لم يصح ، فإن مارى نوبليا هذه كانت وراء جميع المصائب تى حلت على رأس سوجاريه .

فبينما كان بعض العمال يسيرون بجوار مصب النهر ، أبصروا جثة طافية ، فانتشلوها وعرفوها لأول وهلة . إنها جثة أحد سكان القرية سمه « جوليمون » ، وهو شاب غنى وسيم الطلعة ممتلىء حيوية كثير لاختلاط ، يحب النساء ويبادلنه الحب ، وليس فى حياته ما يحمله على الانتحار ، ولا يتصور أن يكون وقع فى النهر ، والجرح العميق الذى ن عنقه يشير إلى أن هناك جريمة قتل .

فما هو الباعث على القتل ؟ لقد عثروا فى جيوبه على محفظته سليم وساعته ونقوده فى جيوبه . فالسرقة لم تكن الباعث على القتل . إن أحا فى القرية لا يعرف له عدوًّا . بهذا شهد كل من سمعت أقوالهم . ولكـ من الواضح أن فى الأمر جريمة ، فالصخور المحيطة بالمكان الذ اكتشفت به الجثة عليها آثار دماء ، مما يشير إلى أن الرجل قتل فى هذ المكان ثم ألقى به فى النهر .

وإذا بخطاب — غفل من التوقيع — يصل إلى المحققين ، يقو مرسله : « استجوبوا الطحان سوجاريه . لقد مضت عشرة أعوام وهو يرقب جولمون لينتقم منه » .

كان يمكن للبوليس أن يتغاضى عن مثل هذا الخطاب لأن الظروف كلها تستبعد أن يكون سوجاريه هو القاتل . فكيف يتصور أحد أن ينتظر غريم غريمه عشر سنوات وهما يسكنان قرية واحدة قليلة السكان ولكن البوليس لا يمكن أن يغفل بحثاً — فى جريمة قتل — مهما بدا خيط رفيعاً . وقاده البحث إلى حكاية قديمة مضى عليها عشر سنوات . لقد وقع الاثنان فى غرام فتاة واحدة ، ولكن الفتاة أدارت ظهرها لسوجاريه وارتمت فى أحضان جولمون ، ولكن غرامهما لم يطل ، فقد هجرته هو الآخر وذهبت إلى باريس .

هل يتصور أحد أن يؤدى هذا الحادث إلى حقد وكراهية تدوم عشرسنين ؟ ليس ذلك بالأمر المستحيل ولكنه بعيد التصور . لقد دل التحقيق أنهما فى البداية كثيراً ما تشاتما كلما تقابلا وجهاً لوجه ، ولكن ذلك خلاف لم يطل أمده . ومع ذلك قبض على الطحان ، وضيق المحققون عليه الخناق . ولكنه أنكر بإصرار وأكد أنه آوى إلى فراشه فى الساعة العاشرة مساء يوم الحادث . صحيح أنه لم يستطع أن يثبت أقواله بشهود ولكن ذلك حال الشخص البرىء . إن مرتكبى الجرائم هم الذين يحتاطون

الحب القاتل !

ويعدون من قبل وسائل دفاعهم . لقد أكد للمحققين أنه لم يعلم بخبر موت غريمه مقتولا — إن كان قد قتل — إلا عند الظهيرة ، ولم يعر الأمر اهتماماً . أما حكاية الفتاة اللعوب التى كانت سبب الخصومة بينهما ، فتلك مسألة قديمة . وقد خانتهما معاً ولم يعودا يفكران فى أمرها .

ثم جاء تشريح الجثة مؤيداً لأقوال سوجاريه ، فقد أكد الأطباء أنه لا دليل قاطع على الجريمة وأن الجرح الفاغر الذى وجد بعنق القتيل يمكن أن يحدث نتيجة وقوع القتيل على صخر مدبب . ثم انزلق الجسم إلى التيار وحشر بين الصخور حتى مات غريقاً .

وأفرج المحقق عن سوجاريه . ومع ذلك بقيت نقطة غامضة فإن جوليمون حين أخرج من النهر كان عارى الرأس ولا يلبس حزام حول بنطلونه ، ويلبس قميصاً ليس قميصه لأنه كان فضفاضاً عليه .

* * *

ومضت شهور تسعة . وذات يوم شاهد رجلان مارى نوبليا خادمة سوجاريه تجرى فى الشارع كالمجنونة تصرخ وتقطع ملابسها وصدرها بأظافرها وتريد أن تلقى بنفسها فى النهر لولا أن أمسكا بها . ولما هدأت ثائرتها قالت إن سوجاريه ، فى ليلة مقتل جوليمون لم يعد إلى المطحن إلا فى الساعة الواحدة صباحاً وكان فى حالة هياج واضح ممزق الملابس ملوثاً بالدماء . وكان يحمل خابوراً حاداً فى أحد أطرافه ، ألقى به فى النار بمجرد وصوله ، وقال لها : « لقد قضيت على جوليمون . لقد طعنته فى رقبته . لقد انتظرت هذه اللحظة من عشر سنوات » .

وسألته مارى : « وأين الجثة ؟ » فقال لها : « بقرب النهر » . وطلب منها قميصاً . فلما سألته لماذا ، قال لها إن قميص جوليمون ملوث بالدماء وإنه ينوى أن يغيره له ويلقيه فى النهر ، وإنها أعطته أحد قمصانه

هو بعد أن أزالت منه العلامة الدالة عليه ، وإنه خرج وأعاد لها قميص جوليمون ملوثاً فألقت به فى النار .

* * *

ترى لماذا سكتت مارى نوبليا كل هذه الشهور التسعة؟ظهر من أقوال مارى ، أن سوجاريه كان قد قطع علاقته بها ، وجاء بإحدى قريباته « فرانسواز » وقيل إنه اعتزم أن يتزوجها وإنها أصبحت عشيقته منذ الليلة الأولى التى وصلت فيها إلى المطحن .

ولكن مارى لم تقبل هذا الوضع بسهولة . إنها فتاة قوية الإرادة نافرة عنيدة .

وكانت كلما قابلت عشيقها السابق تحذره وتقول له إنها لن تغفر له هجرانها .

وأدرك سوجاريه أن تهديدات مارى ليست فارغة . ففقد اتزانه وارتكب الغلطة التى ما كان له أن يقع فيها . فقد اعترف لعشيقته الجديدة فرانسواز بجريمته . وهكذا أصبح مهدداً من امرأتين بدلا من واحدة . وفقد أعصابه ذات ليلة ، فحاول الانتحار شنقاً ولكن فرانسواز أنقذته فى اللحظة الأخيرة وقطعت الحبل !

وعرفت مارى بما حدث ، وأدركت أن سوجاريه اعترافاً منه بجميل فرانسواز لن يتردد فى أن يتزوجها ، وعندها تنتقل ملكية المطحن وجميع ثروة سوجاريه إلى غريمتها . فأنذرته إنذاراً قاطعاً : « إما أن يطرد فرانسواز ويعيدها هى إلى منزله ، وإلا عرف وكيل النيابة أن جوليمون لم يمت غرقاً » .

وتوالى مارى نوبليا اعترافها أمام وكيل النيابة فتقول ، إنه أراد أن يضع نهاية لتهديداتها ، ويتخلص من خطورة السر الذى أفضى به إليها فقال لها :

— إن كنت تريدين أن أتخلص من فرانسواز فساعديني . فتلك هي رغبتي . إنك تعلمين أنني لا أحب أحداً غيرك ولم أحب سواك .

— ولكنك طردتني ؟

— في لحظة جنون كما يحدث لنا جميعاً .

— وما العمل إذاً ؟

— يجب أن تختفي فرانسواز . سوف أعد كل شيء . فإن كنت شجاعة فلا تتركيني أعمل وحدي .

* * *

واستمر أسبوعاً كاملا يقابل مارى يومياً ويبثها حبه . ويسكره بغزله ، ويسيطر عليها بقبلاته ، حتى استجابت له . وأحضر لها يوم حبلا ، وعلمها كيف تعقده ، ثم قال لها : سوف نختفي غداً فتعالي إلى المطحن وسأفتح لك باب غرفتها .

وفي الغد — وكان يوم أحد — ذهبت مارى إلى الكنيسة ، وصلت بحرارة ثم اتجهت إلى المطحن . ووجدت سوجاريه في انتظارها وفتح لها الباب . ثم صعد معها إلى الدور الأول . وأشار لها على باب نصف مفتوح وقال لها : « عليك بها »

ووجدت مارى فرانسواز عارية تسرح شعرها فهجمت عليها . ووضعت الحبل حول عنقها ، وسقط فرانسواز على الأرض وصرخت . ولكن مارى شدت على الحبل وداست عليها بأقدامها بوحشية وبكل قوتها ، ودخل سوجاريه في هذه اللحظة يحمل بلطتين صغيرتين وقال لها : « يجب القضاء عليها » .

فأخذت مارى إحدى البلطتين ، ومزق العاشقان وجه الضحية وصدرها ودفعا بالجثة نحو الباب . ثم قال لها سوجاريه : « ساعديني لإنزالها إلى القبو وسأقوم بدفنها بالليل . أمسكي بالقدمين » .

وعندها حدث ما لم يكن يتوقع . إن منظر غريمتها . وقد تشوه وجهها ، أصابها برعشة وانقباض مفاجئ وظهرت لها فظاعة جريمتها . فركعت أمام الجثة وصلت صلاة الأموات ، وانفجرت تسب عشيقها وشريكها فى الجريمة ، ثم خرجت تجرى كالمجنونة تريد أن تلقى بنفسها فى النهر .

* * *

وأمام محكمة الجنايات اتهمت مارى عشيقها بثلاث جنايات أخرى ، فقالت إنه اغتصبها وهى قاصر ، وإنها حملت منه ثلاث مرات ، وإنه كان يجهضها ، مستعيناً بإحدى الدايات التى توفيت . ولكن سوجاريه لم يضعف أمام التهم الفظيعة التى وجهتها إليه خادمته القديمة كما كان يحلو له أن يسميها .. فهى لم تكن فى يوم من الأيام عشيقته ، وأنكر أن له يداً فى قتل جوليمون أو فرانسواز . فقد قتلتها مارى بتأثير الغيرة بينما كان هو فى الغابة ينصب فخاخاً لصيد السناجيب . وقال إنه لا يدرى إن كان أحد قد رآه لأنه — هو — لم ير أحداً . أما عن حوادث الإجهاض المزعومة فلا علم له بها لأن مارى لم تكن عشيقته فى أى وقت .

وكان تكذيباً حاسماً ضخماً أحدث حركة كبيرة بين الموجودين ، وهبت مارى تصرخ وتقسم أنها لم تكذب وأنها تستأهل أن تحرق فى نار جهنم إن كانت تتهم بريئاً ! وقال سوجاريه إنه برىء برىء !

وكان الشهود فى مجموعهم ضد المتهم . فأخو القتيل أكد كراهية المتهم لأخيه ومحاولته إلقاءه فى النهر . وشهدت فتاتان بأن مارى ذكرت لهما مرتين أنها حامل ، وشهدت امرأة عجوز أنها هى التى باعت لها (وأشارت بأصبعها إلى مارى) الحبل . .

واستطردت الشاهدة تقول : « .. حتى إنها قالت لى إنه — أى الحبل — لربط خيول فى الإسطبل لأنها تعض بعضها بعضاً ، وسألتها إن كان الحبل

متيناً لا ينقطع تحت شد الخيول » . وأضافت الشاهدة تؤكد أنها لم تر سوجاريه إطلاقاً ولا تعرفه .

واستغل الدفاع هذه الشهادة لصالح سوجاريه ، ولكن الشهود الذين حضروا إلى المطحن عقب الإمساك بمارى ومنعها من الانتحار وجدوا فعلا بجوار الجثة بلطتين . فإن كانت مارى هى التى قتلت وحدها فما حاجتها لبلطتين ؟ .. أضف إلى ذلك أن سوجاريه أثناء اعتقاله كتب إلى مارى معاتباً يقول فى أحد خطاباته الذى وصل إلى المحقق بدلا من مارى : « إنك تسعين للقضاء على وأنا الذى كنت أريد أن أعيدك إلى » . وحين علم أن خطابه وقع فى يد المحقق فقد الأمل وحاول أن ينتحر شنقاً داخل زنزانته .

ومع ذلك بقى متمسكاً بدفاعه .. لقد قتلت مارى فرانسواز ليخلو لها الجو ، وهى تتهمه بالجريمة الأولى انتقاماً من طرده لها . ولا يتصور أن يحمل مارى على أن تتخلص من حملها منه — إن صح قولها — مع أن أمنيته كانت أن يرزق بوريث . ولم يكن ما يحول دون زواجه منها . ثم كيف يعقل أن يعترف لها بقتل جوليون ، وهو الذى كان معتزماً أن يطردها من خدمته ؟ وكيف ينتظر عشر سنوات لقتل جوليون مع أن الفرص سنحت له بدل المرة ألف مرة ؟ وكيف يلبسه قميصه بعد قتله ؟ وهكذا وهكذا كان يجد طوال المحاكمة رداً على كل حجة للاتهام .

واقتنع المحلفون بحججه بالنسبة لقتل جوليون ، ولكنهم أدانوه فى جناية قتل فرانسواز . وفى جرائم إجهاض مارى ، وحكموا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، أما مارى فنحوها ظروفاً مخففة أنزلت عقوبتها إلى اثنتى عشرة سنة .

* * *

كيف يمكن التوفيق بين عناصر هذا الحكم ؟ إن كان سوجاريه لم يقتل جولييون كما يقول الحكم . فبماذا يعلل الحكم قتله لفرانسواز ؟ وكيف يعترف لمارى بجريمة لم يرتكبها ويعترف أيضاً لفرانسواز على حد ادعاء مارى ؟

هل تكون أقوال مارى مجرد هستيريا امرأة غيور حقود اعتزمت الانتقام من رجل لم يعد يحبها ؟

إن من النادر أن ينكر المجرم ويمتد إنكاره إلى أكثر من الجريمة التى اتهم فيها . إن إنكار سوجاريه لجريمتى القتل مفهوم ، وأن يمتد إنكاره إلى جرائم الإجهاض فمفهوم أيضاً ، أما أن ينكر أنه كان عشيقاً لمارى فذلك يخرج عن نطاق الإنكار المعروف . ولذلك يرى أحد علماء النفس الذين درسوا القضية أنه أميل إلى تصديق سوجاريه . يؤيده فى ذلك محاولة سوجاريه الانتحار مرتين مما يدل على أنه ليس الرجل الصلب القادر على ارتكاب جنايتى قتل .

أما مارى فأمرها عجيب إن تصرفاتها تدل على إرادة قوية وأعصاب من حديد . فحين يوقظها سيدها فى منتصف الليل ويفضى إليها بجريمته (؟) ويطلب منها قميصاً يلبسه للقتيل ، ويخلع ملابسه الملوثة بالدماء ويحرقها ، فإنها لا تنزعج ولا تتردد بل تعاونه .

وحين يستبدل عشيقها بها فتاة أخرى فإنها لا تبكى بل تعمل وتخضع سوجاريه لإرادتها ، فيضعف ويطلب منها أن تساعده ، فلا تتردد ولا تتراجع . فهى التى تشترى الحبل وهى التى تضعه حول عنق فرانسواز وهى التى تخنقها. بينما يهرب سوجاريه ، أو على حد قول مارى يذهب ليحضر البلطتين . إنما الثابت أنه لم يكن موجوداً أثناء ارتكاب الجريمة . وإنما يتدخل (إن كان قد تدخل) ليقضى على جثة ! فهل يتصور أن تنهار هذه الإرادة القوية بعد أن تتم الجريمة . لا . إن كل ما فعلته

مارى من هروب وصراخ فى الشارع ومحاولة انتحار تمثيل فى تمثيل ، بدافع الانتقام .

وبعد خمسين عاماً من ارتكاب هذه الجريمة تولى أحد كبار الأطباء الشرعيين العالميين دراستها وانتهى به البحث إلى أن مارى لم تكن عشيقة سوجاريه ، وإنما كانت عشيقة جونيمون وأنها حملت منه . وأجهضت نفسها ثلاث مرات ثم راودتها فكرة الزواج من سوجاريه لترثه ، فدبرت قتل جونيمون وقتل فرانسواز ، فلما لم يحقق لها أطماعها أرادت الانتقام منه .

أين الحقيقة وأين الخيال فى كل هذا ؟ من يدرى ؟

من مأمنه يؤتى الحذر !

هداه خوفه إلى أنه يجب أن يعد لنفسه
مقدماً دفاعاً محكماً ليثبت براءته من جريمة
لم يرتكبها . . ولكن الخوف أساء إليه !!

نحن الآن فى شهر مارس من عام ١٩٢٤ ، وفى ضاحية من ضواحى (نيويورك) تعرف بجزيرة (ستاين) ، ومع أن تلك الجزيرة جزء من مدينة نيويورك إلا أنها أشبه بقرية صغيرة ، يعرف أهلها بعضهم بعضاً ويتحدثون عن دخائل كل واحد منهم ، شأن سكان القرى .

وأحد سكان تلك الضاحية ، واسمه هارى هوفمان يعمل فى إحدى دور السينما . ، رجل قصير وبدين بحبوح شأن كل شخص بدين وهو فى الثانية والثلاثين من عمره وزوج سعيد بزوجته وبابنتيه الصغيرتين .

وذات يوم بدأ هوفمان يتصفح جريدته الصباحية ، فإذا به يتوقف عند إعلان من البوليس ، يطلب الإرشاد عن شخص منهم بالاعتداء على سيدة ندعى « بوويز » وقتلها فى ممر يدعى (ممر العشاق) بالغابة المحيطة بالقرية .

وكانت الأوصاف التى نشرها البوليس عن القاتل الذى يبحثون عنه أنه : « أسمر ، رمادى الشعر ، يرتدى قبعة ومعطفاً رماديين ، يضع نظارة إطارها من الصدف على عينيه ، يملك سيارة فورد لموزين ويحمل مسدس كولت عيار ٠,٢٥ » .

واستولى الهلع على هوفمان ، فهذه الأوصاف كلها تنطبق عليه . وزاد من هلعه أنه كان قد قرأ قبل ذلك بأيام قلائل ، أن شخصاً يدعى « فرنك » كان قد اتهم بتهمة مماثلة ، فهجم عليه الجمهور وقتلوه ، ثم تبين بعد عشر سنين أنه كان بريئاً ، وحكم على القاتل الحقيقى !

هداه خوفه — والخوف مشير سيئ — إلى أنه يجب أن يعد لنفسه دفاعاً محكماً ليثبت براءته من تلك الجريمة التى لم يرتكبها .

إنه ، بحكم أنه كان نائب عمدة ، يحمل مسدساً من نفس العيار الذى قتلت به مدام بوبير ، لذلك بادر بإرساله إلى أخيه المقيم فى كاليفورنيا ، وكتب له يقول : « إذا سئلت عن هذا المسدس فقل إنه عندك من ثلاثة أسابيع سابقة » .

* * *

كان الذى حدث ، أن السيدة بوبير كانت تقود سيارتها ، وإلى جوارها ابنتها ووالدتها ، وانحرفت بسيارتها فى الطريق ، فغرزت عجلتان منها ، ولم تستطع متابعة السير ، فتركت السيارة طلباً لنجدة . ورأتها والدتها تركب سيارة فورد ، يقودها رجل بالأوصاف التى ذكرها البوليس وبعد نصف ساعة عثر على جثتها ، وأثبت التحقيق أن اعتداء وقع عليها قبل قتلها .

وأثار هذا الاعتداء الشنيع سكان القرية . وجد البوليس فى البحث وتبين — كما تبين هوفمان — أن أوصاف الجانى تنطبق على صاحبنا . فأوفد إليه المفتش واجنر يستجوبه .

قال له المفتش واجنر وهو يحاوره ، إنه شوهد بجوار المكان الذى عثر فيه على جثة السيدة بوبير وإن فتاة تدعى « بربارا » قد تعرفت عليه من صورته الفوتوغرافية ، فأنكر .

ثم ذكر البوليس بأن لديه رخصة مسدس من مقاس المسدس

لذى ارتكب به الحادث ، فقال إنه أعطى مسدسه لأخيه قبل تاريخ الحادث بعدة أسابيع ، ولكن البوليس لم يأخذ هذه الإجابة قضية مسلمة ، وأرسل يسأل الأخ عن تاريخ وصول المسدس إليه ، فحدد تاريخاً بعد الجريمة بثلاثة أيام !! وزاد الطين بلة أنه حين أخرج المسدس ليسلمه للبوليس لم يكن قد استبعد خطاب أخيه فكان هذا دليلا جديداً ضد هوفمان !

وأخذ المفتش واجنر يضيق الخناق على هوفمان .. سأله : « كيف أمضى وقته يوم الحادث ؟ » . فقال إنه ذهب إلى مانهاتن لمقابلة وكيل أعماله ، ولكن هذا الأخير قال إنه لا يذكر أنه رآه فى ذلك التاريخ !

وقال هوفمان إنه تناول الغداء فى ذلك اليوم فى مطعم صينى ، ولكن أحداً من الخدم الصينيين فى ذلك المطعم لا يذكر أنه رآه . ولما نوقش إن كان قد قابل أحداً من معارفه وهو يمر بالمعدية بين مانهاتن وجزيرة ستاين ، لم يستطع ذكر أحد .. وقال هوفمان كمن تذكر أمراً كان قد نسيه ، إنه ذهب إلى المسرح الذى يعمل فيه فى الساعة الثالثة والنصف وبقى يتحدث إلى زميل له فى العمل يدعى « ريسى باركر » إلى الساعة الرابعة والنصف ، ولو صح لثبت براءته إذ أن الجريمة ارتكبت فى هذا الوقت .

ولما سأل مفتش البوليس ، باركر هذا ، قال إنه كان يتحدث إلى هوفمان بعد ارتكاب الحادث ، وبعد نشر أوصاف المتهم فى الصحف وأن هوفمان كان متوتر الأعصاب ، لأن الأوصاف تنطبق عليه ، وذكر له أنه جلس بمكتب وكيل أعماله ، وأنه تغدى فى مطعم صينى وأنه ركب المعدية دون أن يقابل أحداً . وذكر أن البوليس يستجوب جميع الجيران عن صاحب سيارة فورد ، وطلب إليه أن يقول — إذا سأله البوليس — إن هوفمان كان معه فى وقت ارتكاب الجريمة . وقال

باركر الذى لم يكن يتصور أن صديقه البدين يمكن أن يهاجم امرأة إنه مستعد أن يقرر ذلك . ولكنه حين سمع أن هوفمان يحمل مسدساً من نفس العيار ، وأنه أرسل المسدس لأخيه بعد الجريمة مباشرة ، تصور أنه من الجائز أن يكون هوفمان قد ارتكب الجريمة فعلا ، ولم يشأ أن يساعده على الإفلات ...

وأنكر هوفمان أنه اقترب من ممر العشاق حيث اكتشفت الجثة ، لكن عاملا بالمسرح اسمه « هويتيت » شهد بأن هوفمان قبل الحادث ببضعة أيام ، سأله إن كان يعرف طريقاً مهجوراً يستطيع أن يذهب إليه مع إحدى الفتيات ، فأرشده إلى ذلك الممر الذى أطلقت عليه الصحف — عقب اكتشاف الحادث — اسم طريق العشاق .

ولم يقف حماس المفتش واجنر عند هذا الحد ، فقد أتى بغلام آخر اسمه أدكنز يقول إنه ركب مرة مع هوفمان فى سيارته وإنهما مرا من ذلك الطريق .

وازداد حرج موقف هوفمان حين أكد خبير السلاح أن الرصاصتين اللتين أخرجتا من جسم القتيلة أطلقتا من مسدس هوفمان ، وكذلك حين تقدم جندى الدورية بعد شهر من الحادث ، ويؤكد أنه كان فى طريقه إلى منزله حين رأى سيارة فورد سوداء تقترب منه بسرعة عشرين ميلا فى الساعة ، ولم تتوقف ، ولكنه استطاع أن ينظر إلى وجه السائق ، وتأكد أنه هوفمان وأكد أنه لا يمكن أن يكون قد أخطأ .

كذلك ثبت أن هوفمان بعد الحادث بأسبوع ، قد طلب من أحد الناس ، أن يغير له لون سيارته ، كما ثبت أن عنده نظارة إطارها من الصدف .

وترافع المدعى العام ضده بقوة وحماس .. حقًّا إن أحداً لم يره

وهو يعتدى على الضحية ، أو وهو يطلق النار عليها ، ولكن الظروف كلها تشير إليه . فكل تصرفاته بعد الجريمة تدينه ، ولم يشهد تاريخ القضاء إنساناً بريئاً يبذل كل هذا الجهد لإثبات براءته ، إلا أن يكون قد ارتكب الجريمة فعلا ، وإن إحساسه بالجرم هو الذى تابعه من وقت أن قتل ضحيته . وطلب المدعى العام أن يحكم عليه بالإعدام !

* * *

وحين نطق رئيس المحلفين بقرارهم بالإدانة ، لم يكن فى قاعة الجلسة كلها من شك فى صحة القرار . ولما نطق القاضى بالعقوبة ، وهى عشرون سنة أو مدى الحياة أشغالا شاقة اعتقد الحاضرون أن العدالة لم تنل حقها من مجرم عات أثيم . ولم يعر أحد منهم التفاتاً للمتهم وهو يصيح بالمدعى العام — وهم يقودونه إلى السجن — « اذهب . واقتسم . المكافأة مع شهودك الكذبة » .

* * *

كان الحكم الذى صدر ، موضع استغراب من الجميع ! فأما المحلفون والقاذ فكأنى بهم قد قالوا لممثل الاتهام : « إننا واثقون من صحة كل ما وجهته لهذا الرجل من اتهام ، ولكن يوجد احتمال صغير جداً أن يكون هذا الرجل بريئاً ، لذلك نكتفى بسجنه عشرين سنة » .

وأما الصحافة فقد انتقدت الحكم أمر انتقاد ، لأنها بعد أن سممت الجو ضد المتهم ، ساءها أن يفلت من كرسى الإعدام . وأما سكان جزيرة ستاين الذين كانوا يعتبرون هوفان إنساناً عادياً هادئاً وزوجاً سعيداً وأباً حنوناً ، ولم يكونوا يتصورون أنه يستطيع أن يرتكب جريمة قتل دجاجة ، لا قتل امرأة بعد الاعتداء عليها ، فقد أخذوا يتحدثون عن المظاهر الخداعة ، وعن أن « الساهى تحته دواهى » وأنه « المية تحت تبن » إلى غير ذلك من أمثال هذه الأقوال المأثورة ، ونفضوا أيديهم منه .

* * *

ولكن زملاء المتهم فى العمل كانوا مؤمنين ببراءته ، لذلك جمعوا مبلغاً من المال ، وعهدوا إلى محام قدير ، لكى يتولى الدفاع عنه . واكتشف المحامى عيباً قانونياً فى الحكم . ذلك أن المحلفين أدانوا هوفمان على اعتبار أنه قتل السيدة أثناء الاعتداء عليها ، ولم تكن لديه نية القتل ، بينما التهمة التى وجهت إليه ، أنه تعمد قتلها . وعلى هذا الأساس أعيدت المحاكمة .

ويأبى حظ هوفمان السيئ إلا أن يسقط محاميه أثناء المحاكمة بنوبة قلبية لا ينهض منها ، فتوقف المحاكمة ثم تعاد الإجراءات للمرة الثالثة ، ولكن المحلفين لا يصلون إلى قرار فى شأنه ، فلا هم أدانوه ، ولا هم برأوه ، وهكذا قضى على آخر أمل لهوفمان ، فقد نفدت الأموال التى جمعها له زملاؤه ، ولم يعد فى مقدوره أن يصرف على محاكمة رابعة ..

حتى زوجته يئست ، فاستصدرت حكماً ضده بالطلاق ، ووضعت ابنتيه فى ملجأ وتزوجت غيره .

وأظلمت الدنيا فى وجهه ، وأصبح السجين رقم ٧٥٩٩٠ بسجن سنج سنج الرهيب .

* * *

ولكنه أبى أن يستسلم .. لقد أمضى من العقوبة المحكوم عليه بها خمس سنوات ، وأصبحنا فى عام ١٩٢٩ . وحدثه زملاؤه فى السجن عن نجم جديد ظهر فى عالم المحاماة ، وبين اليأس والرجاء كتب إليه الخطاب الآتى ، ولعله لم يأمل أبداً أن يرد عليه :

« سيدى . أكتب لك النداء الأخير من إنسان يائس . إننى لم أتشرف بمعرفتك شخصياً وأنت طبعاً لا تعرفنى . لقد اتهمت بجريمة قتل أنا برئ منها ، وحكم على بالأشغال الشاقة عشرين سنة بسنج سنج

ولقد جاهدت خمس سنوات لاسترداد حريتى ، وجمع أصدقائى مالا للدفاع عنى لكنه نفد ، فهل تساعدنى ؟ »

* * *

واستجاب المحامى لهذا النداء ، وذهب إلى هوفمان فى سجنه وهو يعتقد أنه واحد من أولئك المجرمين الذين يدعون أنهم أبرياء ، ولكنه بعد أن استمع إلى أقواله أيقن أنه لم يحاكم محاكمة عادلة ، وقابل المحامى المدعى العام — وكان لايزال هو الذى حاكم هوفمان — وأبدى له شكوكه ووافق المدعى العام على الفور أنه إذا أقر هوفمان بأنه مذنب ، اكتفى المدعى العام بطلب عقوبة تعادل المدة التى قضاها فى السجن .

* * *

وعاد المحامى إلى هوفمان وشرح له النتيجة التى وصل إليها ، والخطر الذى يتعرض له إذا أصر على أن يحاكم للمرة الرابعة طالباً البراءة . ذلك أن القانون الأمريكى لا يأخذ بالقاعدة التى تأخذ بها القوانين الأخرى ، من أن المتهم لا يضار بمعارضته أو استئنافه ، وأنه يعرض نفسه لصدور حكم عليه بالإعدام .. ولكن هوفمان أصر على أن يحاكم وقال : « إما أن تثبت براءتى لأنى برىء أو أعدم بريئاً » .

* * *

وفى ٦ مايو سنة ١٩٢٩ بدأت محاكمة هوفمان للمرة الرابعة .

كان المحامى قد درس أوراق المحاكمتين السابقتين التى بلغت عدد صفحاتها ٣٦٠٠ صفحة ، وعدد كلماتها ثلاثة أرباع المليون كلمة ، وتبين مواطن الضعف فيها .

بدأت المحاكمة باختيار المحلفين . ذلك أن من حق الاتهام — كما هو من حق الدفاع — استبعاد بعض المحلفين دون إبداء الأسباب ، وذلك بأن يوجه أحد الطرفين لهم أسئلة تكشف عن نواياهم مع أو ضد الاتهام .

وكان محامى هوفمان يوجه للمحلفين سؤالا واحداً لا يتغير . « هل تعرف هوراشيو شاريت ؟ » ، فإذا أبدى المحلف دهشته ، قال المحامى « إن شقيق "كلينتون شاريت" أحد الزعماء السياسيين بجزيرة ستاتن » .

وبدأ ممثل الاتهام يتململ ويحتد . ويعارض بشدة ، ولكن المحامى طلب منه فى هدوء أن يوجه اعتراضه للمحكمة .

وافتتح محامى الدفاع دفاعه ، بأن الاتهام فى المحاكمات السابقة ، تعمد أن يخفى عن المحكمة وقائع ، لو عرفت لأدت إلى براءة هوفمان ، وأدى ذلك إلى هياج ممثل الاتهام ، حتى إنه قال فى مقدمته إنه سيدعو إلى منصة الشهود « هوراشيو شاريت » لنثبت أنه ليس هو الذى قتل السيدة بوبير برغم تلميحات الدفاع .

وقال محامى الدفاع : « إننى لا أوجه أى اتهام لشاريت ، وإن كان قد رئى بجوار مسرح الجريمة بعد ارتكابها بفترة قصيرة ، وأن أوصافه تتفق مع أوصاف الشخص الذى ركبت السيدة بوبير عربته الفورد ، وأنه تصرف تصرفات تدعو للريبة » .

واعترض ممثل الاتهام على ذلك . وأقره القاضى على اعتراضه . ولكن الدفاع قد حقق أول انتصار له فقد بذر بذرة الشك فى عقول المحلفين وبدأوا يتساءلون : من يكون ياترى هذا الشاريت وما صلته بالجريمة ؟

* * *

كان محامى هوفمان يعرف أن أمامه صعوبات يجب التغلب عليها ، أو إضعافها ، لإمكان هدم الاتهام الموجه لموكله .. أهمها :

أولا : استعراف الفتاة بربارا وعسكرى الدورية .

ثانياً : إقناع المحلفين بأن الشاهدين « هويتيت » « وادكنز » كاذبان .

ثالثاً : التدليل على أن خبير السلاح قد أخطأ ، حين أكد أن الرصاصتين قد أطلقتا من مسدس هوفمان .

رابعاً : إقناع المحلفين بأن تصرفات هوفمان عقب ظهور الجريمة ، ترجع إلى ما أصابه من هلع ، لا إلى أنه مذنب .

* * *

بدأ المحامى يستجوب الفتاة بربارا التى كانت قد بلغت الثامنة عشرة وقت أدائها الشهادة أثناء المحاكمة الأولى ، فأظهر الاستجواب أنها لاتذكر اسم المدرسة التى كانت تتردد عليها ، ولااسم الشارع الذى به المدرسة ، ولا عدد غرف منزلها . وبعد أن أظهر للمحلفين أنها محدودة الذكاء ، وجه إليها السؤال الآتى :

س : حين كنت بنقطة البوليس وجاءوا بهوفمان بصحبة المفتش واجنر وسألك المفتش « هل هذا هو الرجل ؟ » .

هل كانت إجابتك « لا . ليس هذا الرجل » ؟

ج : « نعم »

س : وجئ بهوفمان إلى الغرفة — للمرة الثانية فقلت مرة اخرى إنه ليس الرجل .

ج : « نعم » .

وشرح المحامى أن بربارا لم تتعرف على هوفمان إلا بعد أن رأت صوره فى الجرائد ، وبعد عدة مقابلات مع مفتش البوليس « واجنر » وغيره من رجال التحقيق ، وبذلك قضى على شهادتها .

* * *

ثم جاء دور شرطى الدورية « ماك كورماك » فظهر من استجوابه أنه لم يتقدم بشهادته إلا فى ٢٥ أبريل أى بعد ارتكاب الحادث بشهر ، مع أن البوليس كان جاداً فى البحث ، وبيّن المحامى أن هذا الاستعراف

جاء بإيحاء من ممثل الاتهام . وبعد أن أعلن عن جائزة كبيرة لمن يرشد عن القاتل . وأصر الشاهد على أن ممثل الاتهام لم يبعثه للاستعراف . فدلل المحامى من أوراق التحقيق أن هذا يغاير أقواله السابقة . واضطر ممثل الاتهام أن يسلم ، بأن شاهده هذا يكذب فى أقواله الآن .

* * *

ثم استجوب « هويتيت » فأثبت الدفاع سبق الحكم عليه بجريمة التلصص على سيدة أثناء خلعها لملابسها !

وسأله المحامى :

س — هل كنت فى الشارع وكانت هى بمنزلها ؟

ج — نعم

واعترف هويتيت أنه لم يدل بأقواله بخصوص طلب هوفمان منه مكاناً منعزلا يأخذ إليه فتاة . إلا بعد اتهامه بجريمة التلصص ، ووعد البوليس إياه بالإفراج عنه . وهو ما حدث !

أما الشاهد أدكنز فلم يتطلب القضاء على شهادته إلا سؤالا واحداً من المحامى :

س : هل تذكر المسطرة السوداء الكبيرة التى كانت على مكتب المدعى العام سنة ١٩٢٤ .

ج : (بصوت مرتفع) : « نعم » ، لقد ضربنى بها المدعى العام حين رفضت أن أغير شهادتى بخصوص نظارة هوفمان ذات الإطار من الصدف .

وتبين أنه شهد بأنه رأى تلك النظارة ، معلقة فى غرفة ملابس هوفمان بالمسرح فى وقت ارتكاب الجريمة ، كان قد ثبت أن هوفمان لا يملك إلا هذه النظارة وأخرى بغير إطار !

وهكذا انهار أساسان من أسس الاتهام . الاستعراف وشهادة شاهدين خطيرين .

* * *

وأحس ممثل الاتهام أن الدفاع يريد أن يوجه الاتهام إلى هوراشيو شاريت ، فأراد أن يقطع عليه خط الرجعة فاستدعى شاهداً هو « روبيرت فرجسون » . وكان محامى الدفاع يعلم أن هذا الشاهد كان قد وقف بسيارته قريباً من مكان ارتكاب الجريمة ، وأنه أخبر رئيسه أنه شاهد سيارة تمر من هناك وكان يقودها شاريت ، ولكنه عدل عن هذا القول بعد ذلك . فوجه إليه المحامى السؤال الآتى :

س : ألم تصر — لعدة أسابيع بعد الحادث — على أن الذى كان يقود السيارة هو هوراشيو شاريت ؟

ج — ظننت أننى رأيته .

س : ألم تبلغ المخبر « لويس » فى الليلة التالية لارتكاب الجريمة أنك رأيت شاريت ؟

ج : حدث !

وجاء الدفاع بكونستابل من راكبى الموتوسيكلات ، كان قد رأى شاريت يمر بسيارته قريباً من ممر العشاق ، فاستوقفه وأبلغه عن جريمة قتل مدام بوويز ، ووجه إليه المحامى سؤالا واحداً .

س : هل فتشت شاريت للبحث عن مسدس ؟

ج — : لا .

وضيق المحامى حلقة الاستجواب حول مفتش البوليس واجنر حتى حصل منه على الرد الآتى :

س : هل قال لك المدعى العام إنه استجوب مستر شاريت وأنه لاشبهة عليه ؟

ج — نعم .

س : هل قال لك المدعى العام ، أن تدع شاريت وشأنه لأنه مقتنع بأنه لا غبار عليه ؟

ج : نعم .

وهنا سأل المدعى العام ، محامى الدفاع ، إن كان يقصد أن شاريت هو الذى ارتكب الجريمة ، فقال له : « إننى لا أزعم ذلك . ولكن الذى أقوله إنك لثقتك فى شاريت ، ولصداقتك له لم تحقق معه بالدقة التى كانت تتطلبها ظروف الحادث » .

* * *

وبدأت أنظار المحلفين تبتعد عن هوفمان وتتجه نحو شاريت ، الذى أدخله الدفاع بمهارة فائقة فى الصورة مما حمل ممثل الاتهام إلى استدعائه كشاهد . وتصور كل من بالقاعة أن محامى الدفاع سيشتد فى استجوابه ، ولكن الدفاع اكتفى بأن أثبت فى إجابات شاريت أنه صديق للمدعى العام منذ أكثر من عشرين سنة ، وأنه مر بسيارته بقرب مكان الحادث ، وأنها سيارة فورد سوداء كالتى يملكها هوفمان !

* * *

ولكن كان لايزال هناك توكيد خبير الأسلحة أن الرصاصتين — اللتين استخرجتا من جثة القتيلة — أطلقتا من مسدس هوفمان . وكان الدفاع يعلم أنه لا يكفى فى دحض هذا الدليل الفنى أن يأتى بتقرير استشارى ضده .

فاستدعى خبيرين آخرين أطلقا خمسين طلقة من مسدس هوفمان ، وظهر أن العلامات التى بالطلقات تختلف عن العلامات التى بالرصاصتين

المستخرجتين من الجثة ، ولكن الدفاع لم يكتف بذلك بل جاء بمكرسكوب وطلب من المحلفين أن يروا بأعينهم ذلك الخلاف .

وأصبحت العقبة الوحيدة فى طريق براءة هوفمان هو تعليل رعونته فى تصرفاته ، ولكن أمر ذلك صار هيناً ، بعد أن تخطت القضية جميع العقبات السابقة . لقد كانت كلها تصرفات إنسان تسلط عليه الوهم بأنه سيشنق مظلوماً ، فلم يعد يعى ما يفعل .

* * *

وصدر قرار المحلفين ببراءة هوفمان ، بعد أن أمضى ستين شهراً فى عذاب أليم وجهاد مستمر ، وعاد إلى عمله فى الشركة التى كان يعمل بها ، بفضل ثقة زملائه به ، ومهارة محاميه ، وتعلم درساً دفع ثمنه غالياً . وهو أن « الصدق منج » وأن « حبل الكذب قصير » !

الزوجة الثانية.. وحمل المشنقة !

أخوله ، وتزوجته ،
فوصل إلى حمل المشنقة :

فى عام ١٨٢٧ كان « توماس سميثهرست » فى الثالثة والعشرين من عمره ، وكان لا يزال طالباً يدرس الطب والجراحة والكيمياء فى مستشفى وستمنستر . وقد تعرف بسيدة تدعى مارى ديرهام فى الثالثة والأربعين من عمرها كانت تعاشر رجلا اسمه جونسون معاشرة الأزواج ، وهى والدة لشاب فى الواحدة والعشرين من عمره — أى فى مثل سن توماس — يحمل اسم لابورت . أى أنها امرأة ذات ماض .

وليس غريباً أن يقع شاب فى الثالثة والعشرين من عمره فى غرام سيدة تكبره بعشرين عاماً إذا كانت — كما هى الحال فى السيدة ديرهام — محتفظة بجمالها وأنوثتها . ولكن الغريب أن يسعى ذلك الشاب إلى الزواج من تلك السيدة متناسياً أنه بعد عشرين أو ثلاثين سنة من الزواج سيظل فى عنفوان رجولته فى الأربعين أو الخمسين من عمره بينما تكون هى قد بلغت الستين أو السبعين من عمرها وقد قضت الأعوام على جمالها .

ولكن الحب أعمى كما يقولون ، واندفع توماس تحت تأثيره وتزوج .

ومضت حياتهما الزوجية سعيدة هادئة . أتم توماس دراسته وحصل على شهادة طبيب جراح ، وافتتح عيادة طبية طوال تسع سنوات . ولكنه لم يكن راضياً عن عمله . ذلك أنه اكتشف — كما قال فى كتاب

شره فيما بعد — وجود طريقة أفضل من الأدوية لإعادة الصحة للمرضى، لك هى طريقة العلاج بالحمامات !

* * *

وفى اندفاع أشبه باندفاعه فى الزواج من امرأة فى ضعف عمره ، غلق عيادته وباع محتوياتها ، وسافر إلى ألمانيا ليدرس طريقة العلاج الحمامات فى إحدى جامعاتها . ثم عاد إلى انجلترا يحمل لقب « دكتور اطنى » ، وافتتح مؤسسة علاجية راجت رواجاً كبيراً ، وأقبل عليه المرضى ن جميع الأوساط ، وكان يتقاضى منهم أجوراً مجزية ، مكنته بعد أربعة عشر عاماً — من أن يتقاعد اكتفاء بإيراد ثابت قدر ٢٤٠ جنيها سنوياً ، هو إيراد محترم فى تلك الأيام .

وكان هذا التصرف من جانبه اندفاعاً من اندفاعاته التى لا يستطيع لتحكم فيها . وربما كان ما حمله على هذا أنه — ككل رجل ناجح — م يخل من خصوم . كان كل خصومه طبعاً من الأطباء الذين يتبعون لطريقة الكلاسيكية فى العلاج ، والذين كانوا يعتقدون أن شهادة طب صادرة من جامعة ألمانية لا يمكن أن ترقى إلى مستوى شهادات الجامعات لإنجليزية ، وتناسوا أنه حصل من قبل على شهادة طبيب جراح من جامعة انجليزية ، وكان بعض الناس ينهمونه بالدجل . وقامت بينه وبين قس اسمه « جوليوس » مناوشات على صفحات الجريدة المحلية ، إذ أنكر عليه القس جوليوس أنه طبيب . وكان صاحبنا يستطيع أن يتجاهل ذلك كله ، فإن المرضى الكثيرين الذين شفاهم كانوا يثقون به ويتولون الدفاع عنه.

* * *

ولكن صاحبنا مندفع بطبعه كما قلنا ، ومادام يستطيع أن يعيش من إيراده الثابت ، فليغلق مؤسسته ويترك المدينة ويطوف فى القارة الأوربية . وهكذا فعل . طاف بكثير من مدن ألمانيا ، ثم استقر فترة

فى باريس ، ثم عاوده الحنين إلى طنه فاستقر وزوجته فى حى « بايز ووتر ، بلندن » فى « بنسيون » صاحباه ونزلاؤه جميعاً من كبار السن .

وحدث ما كان لابد أن يحدث . إنه فى عنفوان شبابه عاطل لايدرى كيف يمضى وقته . والحديث مع نزلاء ونزيلات البنسيون — وكلهم فى السبعين أو جاوزوها — ليس مما يشرح القلب . وقد بدأت أمراض كبر السن على زوجته فأخذت تلازم الفراش فى فترات متقاربة وأصبح كل عمله أن يسهر عليها أثناء مرضها .

وهكذا بدأ توماس يكره حى (بايز ووتر » ، ويكره حياة البنسيون المقبضة ، ويكره كل ما يحيط به . إلا أنه — على استغراب منه نفسه — ظل مقيماً على حبه لزوجته .

* * *

وذات يوم أقبلت على البنسيون نزيلة جديدة فى أوسط العمر وشاء حسن حظ توماس — أو سوؤه — أن صاحبة البنسيون طلبت من توماس وزوجته أن تشاركهما النزيلة الجديدة مائدتهما ، لقلة الأماكن . كان اسمها ايزابيللا بانكس — وكانت زهرة متفتحة فى وسط العجائز اللاتى يحطن به — وساد التفاهم بينها وبين توماس من اللحظة الأولى لتعارفهما . لقد أقبلت عليه بكل ذات نفسها .

وقد يرى الذين يتمسكون بالمبادئ أنه كان يجب عليه أن يصده ويوقفها عند حدها ، لأنه متزوج أقسم يمين الإخلاص لزوجته ولكن الجوع الجنسى الذى عاش فيه سنوات طويلة ، وعدم وجود عمل له يشغل الفراغ الذى يعيش فيه ، جعل مخزون رجولته المكبوت يطفو فجأة .. وجارى تلك السيدة فى رغباتها التى صادفت هوى فى نفسه

وأصبح الانفراد ببيللا — فقد أصبح يدعوها باسم التدليل ، لايزابيللا — يحدث كثيراً على مائدة الطعام . إذ أن زوجته — بسبب تقدم سنها

كثرة معاودة المرض لها — كثيراً ما كانت تبقى بغرفتها ولا تنزل إلى غرفة لطعام . وهكذا نمت العلاقة بينهما . إذا جلسا فى غرفة الاستقبال ختارا طنفاً بدلا من كرسيين ، وكثيراً ما تلامست أصابعهما أو تشابكت يديهما فى غفلة من الآخرين .

ولم يكن غزل المراهقين هذا ليقنع ايزابيللا ، ولا كان توماس من جانبه يعارض ، ولكن الحياة فى البنسيون تحول دون تحقيق رغبتهما المشتركة . فلم تفت تصرفاتهما — وإن حاولا إخفاءها — على النزيلات . وبدأت صاحبة البنسيون ترمقهما بنظرات الاستهجان ، وتضيق عليهما الخناق ، كما بدأت الزوجة تعترض على ارتفاع الكلفة بينه وبين ايزابيللا .

لذلك فكرا فى أن يتقابلا خارج البنسيون ، واختارا حدائق « كنسنجتون » حيث كان الحديث يجرى بينهما فى حرية لا يعوقها عائق ، وغزل لا تتجه إليه العيون . واتسع المجال أمام بيللا لتحقيق مطلبها فروت له أن اثنين من أقاربها عقدا فيما بينهما زواجاً سرياً مكنهما من أن يعيشا معاً بطريقة محترمة وضمير مستريح . وذلك برغم أن القانون هناك لا يبيح تعدد الزوجات .

وتولت صاحبة البنسيون — دون أن ترغب — دفع العلاقة بين توماس وبيللا إلى النتيجة التى كانا يتوقان إليها ولا يجرؤ هو على تحقيقها . فقد استدعت بللا ولامتها بشدة على تصرفها « الفاضح » مع الدكتور توماس ، وطلبت إليها أن تبحث لها عن بنسيون آخر لأن هذا البنسيون ظل محترماً ويجب أن يبقى محترماً ..

وانتقلت بيللا إلى بنسيون آخر . وفيه أصبحا يلتقيان بعيداً عن نظرات العذال . وكان الحديث يدور دائماً حول موضوع الزواج السرى وكانت بيللا هي التي تبدأ الحديث . وكان توماس يحس أنه ليس

من اللائق أن يأتى الحديث من جانبها . ولكن فكرة الزواج السرى راقت له ووعدها بأنه سيحيل ذلك الزواج السرى إلى زواج علنى بمجرد وفاة زوجته — وهو أمر كان قريب الاحتمال ، إذ كانت زوجته فى الرابعة والسبعين .

وتقدم يطلب تصريحاً بالزواج . وكانت صدمة له أن طلب منه الموثق أن يوقع إقراراً يقسم فيه على أنه أعزب . وكاد يعدل . ولكن لم يعد له فى الأمر حيلة . أكان فى مقدوره أن يعود إلى بيللا ليقول لها إنه عدل بسبب إحجامه عن توقيع ذلك الإقرار ؟ فوقع وحصل على التصريح بالزواج وعقدا قرانهما أمام أحد القسس .

وترك زوجته دون أن يفضى إليها بشئ . ولكنه ظل يشعر نحوها بالوفاء ، فهو لم يتركها إلا بسبب تقدمها فى السن ، وهو أمر لا ذنب لها فيه ، فكلف أخاه جيمس بأن يزورها ويشرح لها أنها لاتزال فى ذكراه ، وأنه سيستمر فى دفع أجور البنسيون لها ، ويزورها من وقت لآخر ، ويكتب لها أسبوعياً ، ولكنه يرجوها ألا تبحث عنه ولا تسأل عما يعمل ، لأنه قرر أن يعود إلى الطواف بأنحاء البلاد . واعتقد أن تكفله بمعاش زوجته وإظهاره العطف عليها هو أقصى ما يمكن مطالبته به . وبذلك أراح ضميره واستقر وزوجته الجديدة فى شقة مفروشة بحى « ريتشموند » بلندن سعيدين مرتاحى البال .

* * *

ولكن سعادتهما لم يطل أمدها . لقد بدأت بيللا تختلط بجيرانها ، وتتعرف إلى أسر محترمة ، فبدأ الخوف يتسرب إلى نفسها ، وخشيت أن تعرف حقيقة علاقتهما . كما بدأ توماس يشعر بالقلق والخوف من الإقرار المزور الذى وقعه ، واليمين الباطلة التى أقسمها ، ويوجس خيفة من أن تمتد يد القانون إليه بسبب زواجه غير المشروع الذى يعرضه —

او اكتشف – للمحاكمة الجنائية . فاتفقا مع صديق – هو الإنسان الوحيد الذى أطلعاه على سرهما – أن يضعا عنوانه على مراسلاتهما . وصار توماس يقطع المسافة بين مسكنهما ومنزل ذلك الصديق . كلما أراد إرسال خطاب أو تسلم خطاب . ليتجنب أن يضع ختم مكتب بريد « ريتشموند » على خطاباته ليضمن ألا يكشف أحد مقرهما .

وأمضيا أربعة أشهر بين القلق والاطمئنان . ثم مرضت بيللا ، وكانت أعراض مرضها مصحوبة بقيء وإسهال . ولكن تلك الأعراض لم تكن جديدة عليها فلقد كانت كثيراً ما تظهر عليها إذا ركبت عربة . وكم من مرة غادرت غرفة الطعام فى البنسيون السابق . فمرضها الجديد إذاً هو مرضها السابق .

وحاول توماس علاجها بطريقته ، ولكن صحتها لم تتحسن بل أخذت على العكس فى التدهور . عند ذلك لم يجد توماس بداً من أن يتنازل عن مبادئه ولجأ – على كره منه – إلى طريقة العلاج الكلاسيكية . استفسر من صاحبة البنسيون عن اسم أحسن طبيب فى ريتشموند فذكرت له اسم الدكتور « جوليوس ».

لم يكن الاسم من الأسماء الشائعة ، ومع ذلك لم يخطر على بال توماس أن يقرن بينه وبين غريمه السابق القس جوليوس . فقصده وشرح له أعراض مرض زوجته الحالى والسابق ، وطلب منه أن يعودها . وجاء الدكتور جوليوس وفحص المريضة وأظهر – منذ البداية – روحاً عدائية نحو توماس ، الذى لم يدرك – إلا بعد فوات الأوان – أن هذا الدكتور هو شقيق غريمه السابق ، وأنه كان يعلم بأن توماس قد هجر زوجته .

وشخص الدكتور جوليوس الحالة على أنها تلبك معوى . ثم أخذ يتحدث عن الدوسنطاريا .. ثم ما لبث أن احتفظ بآرائه لنفسه . وأخذ

يعترض كلما حاول توماس أن يشير بشيء عن طريقة العلاج . ولما ازدادت حالة بيللا سوءاً اقترح توماس استدعاء عدد من الأطباء لعمل « كونسولتو »، ولكن الدكتور جوليوس رأى دعوة شريكه الدكتور بيرد الذى درس على يد العالم الكبير « تود » . فلما لم تتحسن صحة بيللا دعا الدكتور تود نفسه الذى كشف على المريضة ، وبدت عليه مظاهر تفكير عميق ، ولكنه لم يقل شيئاً أمام الزوج ؛ وأشار بأخذ عينات من إفرازات المريضة لتحليلها فى مستشفى « جاى » بمعرفة كبير المحللين الدكتور « تيلور » .

* * *

طوال مرض بيللا كان توماس هو الذى يعنى بها ؛ فقد اكتسب خبرة طويلة فى التمريض لطول عنايته بزوجته مارى . كان يعد لها الطعام بيديه ويناولها الدواء فى أوقاته . ولم تقابل أحداً إلا الأطباء . وفى بعض الأحيان صاحبة البنسيون . وكان يلح عليها فى أن تتغذى ولكن معدتها كانت لا تحتفظ بأى طعام . فهزلت وضعفت وانزعج من تدهور صحتها فرأى أنه لا يستطيع الاستمرار فى المحافظة على السرية ، وأنه لابد له من إخطار أسرتها .

كتب إلى أختها لويزا يطلب منها الحضور . وقدّر أن لويزا سوف تسأل عن الآنسة بانكس لأنها لم تكن تعرف أن أختها متزوجة . وصاحبة البنسيون لا تعرف بين نزيلاتها واحدة بهذا الاسم ، لذلك طلب إلى لويزا أن تحضر إلى العنوان الذى ذكره لها وتسأل عن « الدكتور سميثهرست وحرمه » وأرجأ شرح التفاصيل لحين حضور لويزا .

وجاءت لويزا على الفور فوجدت أختها فى أسوأ حالة . وزاد من سوء حالة بيللا أنها أخذت تشرح لأختها موضوع زواجها وتطالبها بالاحتفاظ بسرهما . فلما أشارت لويزا إلى أن لهما قريباً طبيباً ينادونه

بالعم « لين » واقترحت دعوته لعيادة بيللا ، رفض توماس لعدم رغبته فى الإفضاء بالسر لشخص آخر ولأنه يخشى على صحة بيللا ، وذكر للدكتور جوليوس أن صحة بيللا ساءت بعد زيارة أختها لها ، فقال الدكتور جوليوس عرضاً أنه يحسن منع الزيارات . فكتب إلى أختها يقول لها إن الدكتور أمر بمنع الزيارة .

وأحست بيللا بدنو أجلها وقالت له إن مرضها هو نفس المرض الذى قضى والدها نحبه به .. وأخذ توماس يسفه لها هذا الوهم ويؤكد لها أنها ستشفى ، ولكنها أصرت على أن تكتب وصيتها ، وقالت إنه الصديق الوحيد لها ، وإنها تعتزم ترك كل ما تملك له .. وكان كل ما تملك حصة قيمتها خمسة آلاف جنيه ، تأخذ ريعها طوال حياتها ، ومبلغ ١٨٠٠ جنيها اقتصدته . وألح عليها توماس أن تترك ثروتها لأختها لأن لديه من إيراده الخاص ما يكفيه ، ولكنها أصرت . فرجاها أن تؤجل كتابة الوصية حتى تشفى ولكنها رفضت . فاستدعى موثقاً وكان لابد لهما أن يذكرا للموثق أنهما غير متزوجين فكتبت الوصية التى منحت فيها بيللا صديقها العزيز الدكتور توماس سميثهرست كل ثروتها ، ووقعتها باسم الآنسة ايزابيللا بانكس .

* * *

وفى الغد — وتوماس فى طريقه لإلقاء خطاب بالبريد — اعترضه ضابط بوليس وأبلغه أن لديه أمراً بالقبض عليه بتهمة دس السم لزوجته إيزابيللا . واقتاده إلى نقطة البوليس وهو فى دوامة لا يدرك كنهها . إن بيللا — بيللا الحبيبة — مريضة فى سريرها وقد تكون فى حالة احتضار وما من أحد بجوارها ليعد لها الطعام أو يناولها الدواء ، ومع ذلك فهو متهم بأنه دس لها السم ؟ كيف أمكن أن يخطر ذلك على بال إنسان ؟؟

وسرعان ما وجد نفسه أمام قاضى البوليس ، والدكتور جوليوس

يدلى بشهادة يقول فيها إنه قد عثر على سم الزرنيخ فى إفرازات بيللا . ولم يستطع توماس أن يصدق ذلك ، ولكنه لم يكن يفكر فى نفسه فى تلك اللحظة ، بل فى مصير بيللا . فصرخ فى وجه الدكتور جوليوس وقال له إنه سيكون مسئولاً عن موتها لأنها بمفردها دون طعام أو دواء . ثم أخذ يستعطف القاضى أن يتركه يذهب إلى بيللا . وحدث مالم يكن متوقعاً فعطف عليه القاضى ، وأخلى سبيله بضمانة نفسه ، فأسرع إلى بيللا ووجدها فى حالة قلق شديد ، وأخذت تعتب عليه أن تركها طوال ثلاث ساعات ونصف . ولم يذكر لها ما حدث له خشية ازعاجها .

وأمضت بيللا ليلة مرهقة بينما أقض مضجعه التفكير فى التهمة الباطلة الموجهة إليه ، وفيما سيكون مصير بيللا إذا هو دعى مرة أخرى للتحقيق ولم يفرج عنه . . وهداه تفكيره إلى أن يستنجد باويزا ، فكتب لها خطاباً يطلب منها الحضور واستدعى ممرضة تسهر على بيللا . عندما حضرت اويزا وجدت أختها تحتضر وماتت فى يومها .

وأعيد القبض على توماس .

* * *

وأمام محكمة البوليس استمع توماس فى دهشة إلى شهادة الدكتور تيلور — كبير محللى مستشفى جاى والخبير الأول فى السموم — فإذا بها شهادة قاطعة .. قاتلة . كان البوليس يسعى لإثبات وجود زرنيخ فى حوزة المتهم ، لذلك فتش مسكنه وجمع كل ما فيه من زجاجات أرسلت للتحليل . وشهد تيلور أنه حلل محتويات الزجاجة رقم ٢١ فوجد أنه سائل طعمه مقبول ولا رائحة له . ولكنه لم يجد به زرنيخاً . واستنتج أن الزرنيخ لابد أنه ممزوج بمادة تجعله لا يتفاعل عند إجراء التجارب . ووجد أن هذا السائل مكون فى غالبيته من كلورات البوتاسيوم ، ٧ حبات كلورات مقابل حبة زرنيخ ، فمرره من شبكة من النحاس واستنتج

من تفاعله وجود حبة الزرنيخ المذكورة . وقال إن تعاطى كميات قليلة من هذا السائل تحدث التيء والإسهال الذى إذا استمر طويلا يؤدى إلى التهابات فى المعدة والمصارين .. تنتهى بموت بطيء .

ما هذا التخريف؟ لقد كان توماس يشكو من رائحة كريهة فى فمه فاستشار طبيب أسنان أشار عليه باستعمال محلول كاورات البوتاسيوم لغسيل الفم . وكان هو الوحيد الذى يستعمله بينما بيللا لم تستعمله قط . فإذا كان السائل يحوى زرنيخاً فكيف لم تظهر عليه هو أعراض التسمم أو لم يمت ؟

ومثل توماس أمام محكمة « أولد بيلى » . ووقف ممثل الاتهام يشرح الدعوى من وجهة نظره بأسلوب واضح .. مقنع .

قال إن المتهم ألقى شباكه على القتيلة وتظاهر لها بالحب ليخضعها لسلطانه ثم أخذ يدس لها السم ليستولى على ثروتها .. لقد درس المتهم الطب والكيمياء ، فاستغل معلوماته وصار يسقى ضحيته سماً ممزوجاً بمواد من شأنها أن تجعل الجسم يتخلص من آثار السم فلا يظهر فى التحليل ويجعل اكتشافه صعباً !

وأخذ ممثل الاتهام يتتبع تصرفات توماس من وقت تعرفه إلى بيللا ، ويفسر كل ما فعله مع بيللا أو من أجلها على أنه جزء من مؤامرة أعدها توماس باتقان وتدبير محكم للقضاء عليها . المغازلة السريعة والزواج غير المشروع ، والاحتياطات التى اتخذت للمحافظة على السرية . وإعداده الطعام لها بنفسه أثناء مرضها . وقيامه على خدمتها دون الاستعانة بممرضة حتى ساعاتها الأخيرة . ومنعه أختها من زيارتها . ورفضه استدعاء العم لين ، وأخيراً — وليس آخراً — الوصية التى حررت بمقتضاها أسرتها وتركت كل ثروتها له .

ثم ذلك الخطاب المرسل لزوجته الأولى والذى ضبط معه قبل أن

يضعه فى صندوق البريد . إنه واحد من الخطابات الأسبوعية التى كان يرسلها بانتظام لزوجته كما وعدها . إنه يقول لها فيه إنه لم يذهب لزيارتها فى الأسبوع السابق لاعتنائه بحالة مريضة . لم يذكر من هى ، لأنه يخفى عليها أنه تزوج . ولأنه لم يكن متأكداً أنه سيستطيع زيارتها فى الأسبوع المقبل — بسبب مرض بيللا — أشار إلى احتمال حدوث ما ليس فى الحسبان فهو لذلك يبعث لها بإيجار البنسيون مقدماً لأسبوعين . وختم خطابه — كما كان يفعل دائماً — بإرسال تحياته إلى أصحاب البنسيون والأصدقاء وتوكيد إخلاصه وحبه .

إنه خطاب لا يختلف عن الخطابات التى أرسلها لمارى — زوجته مدى ثلاثين عاماً — والتى لم ينسها وظل يذكرها بالكثير من العطف والحنان . ويأسف أن كبرسنها حرمه من الكثير مما كان يرغب فيه .. والذى أغدقته عليه بيللا ..

ولكن عبارات هذا الخطاب فى مرافعة الاتهام انقلبت إلى أصابع تشير إليه وتضيق عليه الخناق . أمسك ممثل الاتهام بالخطاب وتلاه فى بطء وهو يضغط على كل كلمة فيه ويتساءل : « أهذا خطاب رجل هجر زوجته ليعيش مع امرأة أخرى بنية عدم العودة ؟ أم أنه خطاب رجل يعلم أن المرأة التى يعيش معها لن تعيش طويلا ، ويعتزم بعد أن تتضخم جيوبه بمالها — أن يعود إلى زوجته الأولى التى هجرها مؤقتاً ؟ » .

* * *

ثم دعا ممثل الاتهام أحد عشر طبيباً شهدوا جميعاً بأن موت بيللا لا يمكن أن يعزى إلا إلى سم كان يعطى لها على فترات فيسبب لها دوسنطاريا حادة . صحيح أن الصفة التشريحية لم تؤد إلى اكتشاف ذلك السم ولكن المسئول عن عدم ظهور السم هو كلورات البوتاسيوم (كذا) .

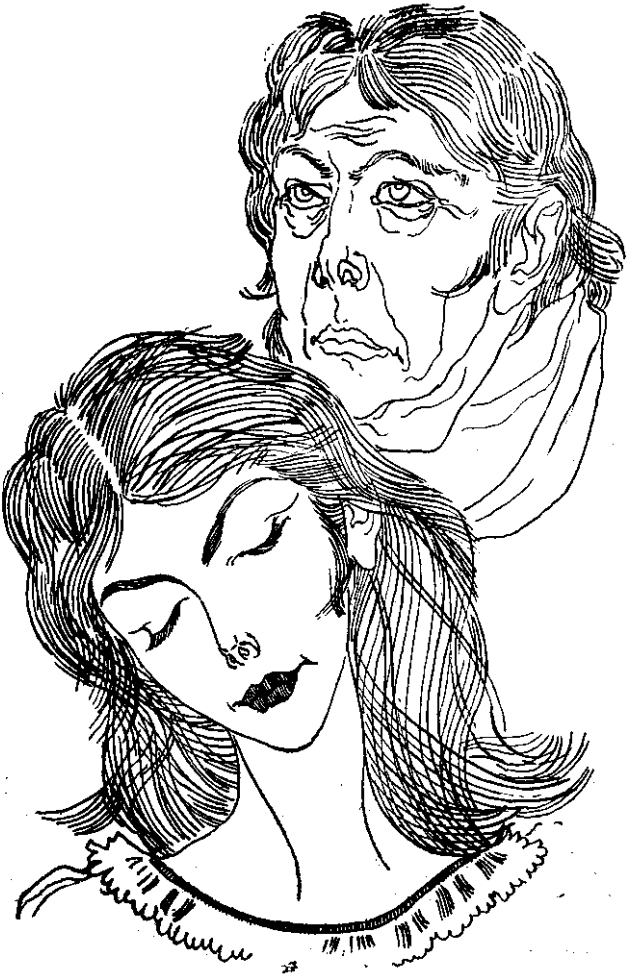

الزوجة الثانية .. وحبل المشنقة !

وظهرت فى القضية مفاجأة بعد مفاجأة . كانت المفاجأة الأولى قول الطبيب الذى أجرى الصفة التشريحية أن بيللا كانت حاملا فى شهر ونصف. ولم يكن الطبيب يعلق أدنى أهمية على هذا الخبر ، وإنما ذكره من باب جعل تقريره مستوفياً .. ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لتوماس . إنه يعلم — وقد ذكر ذلك للدكتور جوليوس — أن الحيض لم ينقطع عنها قط . وصح ما توقعه ، فقد اتخذ ممثل الاتهام — والقاضى من بعده — من هذا القول دليلاً لإدانته .

وكانت المفاجأة الثانية أثناء شهادة الدكتور تيلور . قال إنه موقن أن بيللا ماتت من أثر السم . ولكنه — للحقيقة — يعترف أنه أخطأ حين ذكر أمام البوليس أن الزجاجة رقم ٢١ كانت تحتوى زرنيخاً . ويقرر أن الشهادة التى أدلى بها إذ ذاك كانت خاطئة . لقد أقسم اليمين أمام محكمة البوليس أن الزجاجة كانت تحتوى زرنيخاً ، أى أنه كان فى حيازة المتهم زرنيخ ، ولكنه اكتشف — فيما بعد — أن التفاعل الذى حمله على الاعتقاد بوجود الزرنيخ نتج عن استعماله شبكة غير نقية من النحاس كان يستعملها فى تجارب أخرى . والواقع الذى يقرره الآن أنه لا وجود للزرنيخ لا فى تلك الزجاجة ولا فى أى شئ من متعلقات المتهم .

صحيح أنه أكد مع ذلك العثور على كمية لا تذكر من الزرنيخ فى إفرازات المتوفاة . وكان ذلك فى تجربة أجراها الدكتور تيلور الذى أقر بخطئه ، ولكن ما قيمة ذلك إذ أن من أخطأ مرة قد يخطئ مرتين .

* * *

وبدأ توماس يشعر بالاطمئنان . وازداد اطمئناناً حين تقدم الدفاع بسبعة من أساطين الأطباء شهدوا جميعاً أنه لا الأعراض التى ظهرت

على المتوفاة أثناء مرضها ، ولا نتيجة تشريح الجثة ، تتفق مع التسمم البطئ من الزرنيخ . وأن مزج الزرنيخ بكلورات البوتاسيوم — إن صح أن ذلك قد حدث — لا يؤدى إلى اختفاء الزرنيخ وتخلص الجسم منه . وأكدوا أن سبب الوفاة طبيعى . فالقئ والإسهال كثيراً ما يصاحبا الأيام الأولى للحمل . وهناك حالات أدى فيها القىء الكثير إلى الوفاة . فالحمل فى رأيهم من الأسباب التى أدت إلى وفاة بيللا ويفسر الأعراض التى ظهرت عليها ، وأنه لا غرابة فى أن الحيض لم ينقطع عنها أثناء الحمل ، فالطب يعرف حالات كثيرة يستمر فيها الحيض أثناء الحمل . فلا محل لاستنكار توكيد توماس للدكتور جوليوس .

اطمأن توماس إلى براءته . إن الاتهام كان معذوراً فى توجيه التهمة إليه أمام توكيد الدكتور تيلور بوجود الزرنيخ فى حيازته . أما وقد عدل عن توكيده هذا ، وجاء هؤلاء الأطباء الذين لا يرقى الشك إلى أقوالهم يؤكدون أن موت بيللا كان طبيعياً ، فلاشك أن المحلفين قد اقتنعوا وأن المحاكمة لا يمكن أن تنتهى بغير إعلان براءته .

* * *

ولكن توماس كان يقدر . وكانت الأقدار تضحك .

لقد كان القاضى « بواوك » هو الذى يرأس الجلسة وكان قد بلغ السادسة والسبعين . والقاضى فى إنجلترا لا يحال إلى المعاش وإنما هو الذى يتقاعد باختياره . وكان الكثيرون يعتقدون أنه قد آن للقاضى بواوك أن يترك منصة القضاء . فهو عنيد فى آرائه ، صلب فى تفكيره ، ومحب للتظاهر والظهور . يهوى الاستماع إلى صوته وهو يتكلم . ولم يتطور مع الزمن .

وكان من سوء حظ توماس أنه طلب من القاضى — فى بدء المحاكمة — أن يتنحى عن نظر القضية لصداقته المتينة للدكتور تيلور . ولكن

القاضى لم يقبل التنحى ، وظهر عليه الامتعاض من هذا الطلب وقرر الاستمرار فى نظر القضية .

وشاء حظ توماس أن يمرض أحد المحلفين فى ثانى يوم للمحاكمة فتأجلت القضية شهراً . وحين جاء عليها الدور لم يكن القاضى بولوك هو المفروض أن يرأس الجلسة ، ولكنه حضر خصيصاً إلى المحكمة ، وأصر على أن يرأس الجلسة بنفسه .. ما من شك أن الدافع بالنسبة للقاضى كان شريفاً ، ولكنه على كل حال — ومع شديد الأسف — أظهر تحاملا على المتهم لا يليق صدوره من قاض .

والقاضى الإنجليزى يستمع إلى أقوال الاتهام والدفاع وأقوال الشهود ثم يلخص القضية للمحلفين . ومن النادر أن يخرج المحلفون فى قرارهم عن النتيجة التى تستخلص من تلخيص القاضى .

سلم القاضى فى تلخيصه أن بيللا ماتت بالسم برغم توكيد العدد الضخم من الأطباء أن موتها كان طبيعياً . ثم أظهر اعتقاده أن الباعث على القتل هو الرغبة فى الاستيلاء على أموال القتيلة .

ثم أخذ يترحم على القتيلة التى استدعى لها الموثق فى ساعاتها الأخيرة بغير حضور أحد من أقاربها أو قسيس يأخذ بيدها فى تلك الساعات الحرجة . . والتى تركت تنتقل إلى العالم الآخر دون عزاء من رجل الدين كما لو كانت ملحدة .

واستبعد القاضى أن تكون بيللا هى التى طلبت أن تتزوج توماس زواجاً سرياً .

واستمر تلخيص القاضى ثمانى ساعات وثلاثة أرباع الساعة . فاعتبر أن إيصاء بيللا بثروتها لتوماس باعث كاف للقتل لأن مبلغ ١٨٠٠ جنيها يقبضها فى حالة وفاتها أفضل من ٧٠٠٠ جنيه تستحقها أو تستحق إيرادها — طوال حياتها . وأنه إذا كان هذا ليس بالباعث

لكافى فإن حمل بيللا — فى نظر القاضى — سواء صدق المتهم أو لم صدق فى قوله — باعث جديد . إذ ماذا كان سيفعل بذلك الطفل الذى جاء ليعكر تدبيراته .

فتوماس إذاً فى تلخيص القاضى غازل القتيلة وأقام معها علاقة مؤقتة ليحملها على الإيصاء له بثروتها ثم يقتلها ويعود إلى زوجته الأولى — كما يدل على ذلك الخطاب الذى وجد معه — وأن حملها أفسد عليه تدبيره فأصبح قتلها ضرورة مزدوجة .

ودافع توماس عن نفسه دفاعاً طويلا أقسم فى بدايته أنه برئ أمام الله ، وأن علاقته ببيللا كانت مبنية على الحب المتبادل ، وأنه لم يطمع فى مالها بل كان مستعداً أن يضحى بحياته فى سبيلها . وتساءل كيف يتصور أن يقتل امرأة شابة ليحتفظ بعجوز جاوزت السبعين ؟

ولكن ما قيمة هذا الدفاع أمام تلخيص القاضى الذى استمر يكيل له الضربات ثمانى ساعات وثلاثة أرباع الساعة ! وهكذا أدانه المحلفون . وصدر الحكم بالإعدام وتحدد يوم التنفيذ بعد أسبوعين .

* * *

ولو كانت محكمة الاستئناف موجودة فى انجلترا فى ذلك الوقت لكان من المرجح أن تلغى هذا الحكم ، إما لتحيز القاضى فى تلخيصه ، أو لأن الحكم يصطدم مع وقائع الدعوى . ولكن محكمة الاستئناف لم تنشأ فى انجلترا إلا بعد ذلك بنصف قرن .

تقدم توماس لوزير الداخلية يلتمس العفو عنه ويؤكد براءته ويكرر الحجج السليمة التى كان يجب أن تقنع المحلفين . وما كان الوزير ليعير ذلك الالتماس اهتماماً لولا أن وجد له فى الوقت نفسه دفاع حار من زوجة المتهم الأولى أكدت فيه يقينها ببراءة زوجها ، وقالت إنه عطوف كريم محسن لا يمكن أن يرتكب جريمة قتل . وتقدم ثمانية وعشرون محامياً

من أكبر محامى انجلترا يعترضون على الحكم . كما قدمت مذكرة من ثلاثين طبيباً ينكرون أن تكون بيللا ماتت مسمومة ويؤكدون أن الحمل هو سبب الوفاة ، ويقولون إنه — ولم يقم دليل على الإدانة — من الظلم تنفيذ حكم الإعدام .

إزاء ذلك رأى وزير الداخلية تأجيل تنفيذ الحكم واستشار القاضى بواوك . ولكن القاضى أصر على يقينه أن توماس هو القاتل ، ولكنه اعترف أن الناحية الطبية لم تعرض على المحلفين عرضاً كاملا ، لا من جانب الدفاع ، ولا من جانب الاتهام ، فرأى وزير الداخلية أن يعين محكماً يفصل ما بين الأطباء المتعارضين .

وكان أكبر أطباء إنجلترا فى ذلك الوقت الطبيب الخاص للملكة فيكتوريا ، الذى كان من قبل الطبيب الخاص لجورج الرابع ، ووليام الرابع ، فأفتى بأنه لا يوجد دليل قاطع على إدانة توماس .

وهكذا منح توماس عفواً شاملا عن تهمة قتل بيللا . ولكنه قدم للمحاكمة بتهمة تعدد الزوجات وصدر عليه حكم بالأشغال الشاقة لمدة سنة .

وخرج توماس من السجن إنساناً آخر غير الذى دخله . كان قبل السجن وديعاً حنوناً عفيفاً لا مطمع له فى مال ، وخرج من السجن قاسياً حاقداً يبحث عن المال .

ولعل له كل العذر . فقد اتهم بإغواء المرأة التى أغوته ، وبالطمع فى ثروتها مع أنه لم يفكر فيها ، وبأنه دس لها السم وهو الذى أحبها وود لو ضحى بحياته من أجلها ، وأحس بحبل المشنقة يلتف حول رقبته وهو برىء .

لذلك كان أول ما فعله بعد الإفراج عنه أن رفع دعوى على الحكومة يطلب تعويضاً ، ولكنه خسرها إذ لم يكن القانون قد أباح منح تعويض

فى مثل هذه الحالة ، خاصة وقد حكم عليه بالإدانة فى التهمة التى وجهت إليه بالقتل برغم حصوله بعد ذلك على العفو .

اتجه بعد ذلك إلى اويزا بانكس وأسرتها مطالباً بحقه فى مبلغ الألف وثمانمائة جنيه وشرح فى دعواه جميع ظروف علاقته بالحبيبة بيللا . كيف كانت هى البادئة ، وكيف أغوته ، وكيف طلبت هى الزواج السرى . وفى سبيل الحصول على المال انتزع منها الحالة التى كان قد أحاطها بها . وبذلك حصل على حكم بمبلغ الألف وثمانمائة جنيه .

ثم حدث ما كان بعيد التصور لو أن بيللا لم تمت . عاد توماس إلى زوجته الأولى التى وقفت إلى جواره فى محنته .

جارة السوء !

دفعت الأسرة ثمناً غالياً من حريتها ومالها
لأن جارتها حقدت عليها وانتقمت منها ،
ولكن القصاص جاء فى النهاية

من شر ما يبتلى به الإنسان جار سوء . وأسوأ من جار السوء جارة السوء لأن كيدها عظيم وفراغ وقتها يمكن لها من تدبير المكايد . لذلك قال المثل : « اختر الجار قبل الدار » . ولذلك أوجدت بعض القوانين حق الشفعة ليأمن المالك من أن يجاوره جار سوء ينغص عليه حياته . فإن الجيرة قرابة أو صداقة إجبارية تكون مصدر سعادة إذا كان بين الجيران تواد ومحبة ومصدر شقاء إذا انعدم الانسجام بينهم .

وقد دفعت أسرة جونسون ثمناً غالياً من مالها ومن حريتها لأن جارتها حقدت عليها فدبرت لها مكيدة لم يكشفها البوليس والقضاء إلا بعد فوات الأوان .

كان جونسون وزوجته يستأجران منزلا مكوناً من دورين وحديقة صغيرة . وقد أعدا بالدور الأرضى منه حانوتاً صغيراً لبيع الخضر ، بينما أعدا الدور الثانى لسكنهما هما وابنتيهما الصغيرتين . وكانت تجارة متواضعة ، فإن قرية أبرلسون بانجلترا التى كانا يقطنانها قرية صغيرة قليلة السكان ، وكانت جهود جونسون وزوجته لا تتعدى — لقلة ذات اليد — شراء أصناف الخضار يومياً من سوق القرية وبيعها للعملاء ..

وقد تقاسم الزوجان العمل فيما بينهما . تتولى الزوجة بنفسها خدمة

العميلات القليلات اللاتى يترددن على المحل . بينما يستيقظ الزوج فى الصباح الباكر فيقود عربة صغيرة يجرها حصان هزيل يقصد بها سوق الجملة فيشترى حاجة الحانوت من الخضر ، فيترك بعضها فى الحانوت ، ثم يدور بالعربة طوال ساعات النهار بالجزء الباقى لتوزيعه على عملاء المحل الدائمين وعرضه على مشترين جدد يطوف على أبوابهم ويعرض عليهم ما معه من أنواع البطاطس والكرنب ونحو ذلك .

* * *

وكان العمل شاقًّا ومضنياً بالنسبة للزوجة . فقد كانت تمضى الجزء الأكبر من وقتها بالدور الأعلى للعناية بابنتيها وتنظيف المنزل وما تحتاجه الحياة من غسيل وطهى . ومن حين لآخر يرن جرس الحانوت فتنزل مسرعة لتلبى حاجة العميل الذى جاء يشترى ثم تعود مسرعة إلى الدور الأعلى لتطمئن على الطعام الذى تركته فوق النار .

وكانت مع ذلك راضية بما قسم الله لها . دائمة الابتسام بالرغم مما هى فيه من إرهاق ، تستقبل عميلات المحل بالترحاب وتستمع إليهن باهتمام وتصغى إلى شكاياتهن وأحاديثهن .

وعلى عكس ذلك كان زوجها . عبوس الوجه متجهمه سريع الغضب لا يستسيغ نكات الآخرين . وإذا رد على أحدهم كان رده من النوع الجارح الذى يترك فى النفس مرارة وألماً .

ذلك مع أن العمل الذى يقوم به وهو المرور على البيوت يتطلب أخلاقاً غير هذه الأخلاق . فهو يتطلب شخصية مرحة طيلة الحديث ، يسامر عميلاته ويتبادل النكات ويستطيع بذلك أن يبيع لهن بضاعته .

* * *

وأدت طبيعة أخلاق الزوج إلى أن تشاجر مرة مع السيد روبنسون صاحب حانوت فى ذات الشارع حتى كادا يتماسكان بالأيدى لولا

تدخل بعض الجيران ، وذلك لمجرد أن السيد روبنسون أبدى ملاحظة خفيفة — على سبيل المزاح — وجد فيها السيد جونسون جرحاً لإحساس حصانه المرهف الحس .

وتشاجر مرة أخرى مع السيد جوس صاحب المنزل الذى يسكنه ، فأقام الدنيا وأقعدها ، وتوقف عن دفع إيجار منزله ، فقامت بينهما قضايا انتهت بطبيعة الحال لصالح المالك .

واختلف مع جاره الملاصق ، السيد ألبرت وودمان وامتنع عن التحدث إليه ، ووجدت السيدة جونسون نفسها مضطرة للتضامن مع زوجها على كره منها ، فقطعت علاقتها بالسيدة وودمان ، مع أن هذه الأخيرة لم تنجب أولاداً وكانت تقوم فى رضاء تام بالعناية ببنتى جونسون أثناء اشتغال أمهما بالغسيل أو الطهى أو خدمة العملاء أو مرضها .. ولم تكن السيدة جونسون تقر زوجها فى تصرفاته ، وكانت تعتقد أنه المخطئ فى كل خلاف قام بينه وبين أحد الجيران . وخاصة فى خلافه مع السيد وودمان ذلك أنها لم تكن تجد مبرراً لذلك الخلاف . فليس بين زوجها وبين وودمان ما يدعو لأى احتكاك أو تنافس . فوودمان عامل بالسكك الحديدية . ولكن يبدو أن جونسون كان يحقد عليه أنه فى وظيفة ثابتة وله مرتب ثابت يقبضه فى نهاية كل أسبوع بينما هو يكد النهار كله ولا يكاد يجد لقمة العيش . أو لعله كرهه لمجرد أن شكله لم يعجبه تمشياً مع طبيعته فى عدم حب الناس .

واضطرت السيدة جونسون تضامناً مع زوجها أن تقطع علاقتها بالسيدة وودمان فلم تعودا تتبادلان التحية ، بله الحديث ، وقامت بينهما حرب باردة لا مبرر لها ، ولا حيلة للسيدة جونسون فى وضع حد لها .

* * *

وبينما السيدة جونسون مشغولة ذات يوم من أيام أكتوبر سنة ١٩١٢

فى طهى الطعام دق جرس الحانوت . فاعتقدت أن الطارق أحد العملاء ونزلت مسرعة لتلبى الطلب ، فهالها أن وجدت أحد رجال البوليس وبيده أمر بالقبض عليها بتهمة إرسال خطاب تهديد بالقتل لجارتها السيدة وودمان وزوجها .

لم تصدق أذنيها ولم تعر الأمر أى التفات ، فهى تعلم من نفسها أنها لم تكتب فى حياتها أى خطاب من أى نوع كان لأسرة وودمان فكيف تتهم بإرسال خطاب تهديد لهم بالقتل ؟ . إن ذلك لمما يدعو للدهشة ويستوجب السخرية ... ولكن رجل البوليس أفهمها أن الأمر جد ولا محل للخطأ فيه ، وأطلعها على أمر القبض الصادر ضدها وحاولت قراءته فوجدت اسمها مكتوباً بوضوح ولو أنها لم تستطع أن تتبين نوع التهمة أو تدرك مغزاها .

* * *

وحين طلب منها البوليس أن تتبعه إلى القسم احتارت واحتار دليلها .. فزوجها فى جولته اليومية ، ولا أحد يعنى بطفلتيها ، والطعام الموضوع على النار لم يتم طهيه . فأطفأت الموقد وأغلقت الباب على ابنتيها وتركت كلمة لزوجها كتبتها بيد ترتعش ودموع تنهمر ، وتبعت رجل البوليس إلى حيث لا تدرى مصيرها . وفى مركز البوليس وجهت إليها التهمة وفتشت وأدخلت إلى غرفة السجن وأغلق عليها بابها .

وفى المساء جاء زوجها إلى مركز البوليس وصب جام غضبه على ضابط البوليس ، ولكن ما جدوى الغضب فى مثل هذا الموقف الحرج .

* * *

ومثلت فى صباح الغد أمام قاضى التحقيق . وكانت المحكمة غاصة برجال البوليس وبالمتهمين أمثالها وبجمهور من المتطفلين . وأدخلوها فى القفص كما لو كانت مجرمة . ولم يبد على أحد من الموجودين ، من

القاضى إلى الحاجب، أنهم يعيرون أى اهتمام لدهشتها وحيرتها .

سألها القاضى إن كانت مذنبة أو غير مذنبة . فقالت إنها غير مذنبة وأرادت أن تزيد موقفها شرحاً ولكن القاضى لم يسمح لها بالكلام . فذلك حكم القانون .

واستدعيت السيدة وودمان وأقسمت اليمين القانونية وأخذت تدلى بشهادتها . قالت إنها تتلقى منذ شهر مارس بانتظام خطابات تهديد بالقتل . خطاباً أو خطابين يومياً . منها ما كانت تجده فى صندوق الخطابات الخاص بها ومنها ما كانت تعثر عليه فى حوش منزلها الخلفى الملاصق لحوش منزل المتهمة . وقالت إن هذه الخطابات كانت تسبب لها قلقاً شديداً لأنها لم تكن تعرف مصدرها . وفى ذات يوم بينما كانت تقف بجوار بابها الخلفى ألقى عليها حجر فلما التقطته وجدت حوله وريقة كتب عليها « أرجو أن يصيبك هذا الحجر بين عينيك . وسأفعل ذلك فى أول فرصة تسنح لى » . ثم أخرجت تلك الورقة من بين مجموعة أوراق معها وقدمتها للقاضى .

وقالت إنه بدا لها أن ذلك الحجر ألقى عليها من ناحية منزل المتهمة ولكنها أنكرت — فيما بينها وبين نفسها — أن تكون السيدة جونسون هى التى ألقته لأنها وإن كانت لا تحب السيدة جونسون إلا أنها استبعدت أن تكون هى ملقية الحجر إذ لا شئ يدعوها لمثل ذلك . ولم تجد من تعليل لهذا التصرف إلا أن تكون السيدة جونسون قد أصيبت بجنون مفاجئ ولم تعد تدرى ما تفعل .

وروت لزوجها ما حدث فرغب فى أن يتحدث إلى السيد جونسون فى الأمر ولكنها أقنعته بألا يفعل خشية أن يقتله السيد جونسون .

وفى اليوم التالى — والقلق لايزال مستولياً عليها — فكرت فى أن تفضى إلى صديقتها السيدة هويتمر بما حدث . وكان طريقها إليها لا يمر من

أمام منزل المتهمة ... فلما عادت وجدت بصندوق خطاباتها ورقة مكتوباً بها « أراك تخافين من الذهاب إلى المدينة ولكنك سوف تقتربين حتماً يوماً من منزلى » .

ثم أخرجت مجموعة الأوراق التى تحدثت عنها والخطابات الأخرى التى وصلتها وكانت كلها بنفس الخط وتحوى نفس الأخطاء اللغوية والإملائية مما يقطع بأن مرسلها هو شخص واحد . وقالت إنها الآن موقنة — وقد أقسمت اليمين — أن مرسل خطابات التهديد هى السيدة جونسون لما تحويه من تعبيرات وتلميحات لا يمكن أن تصدر إلا منها ، ولأنها رأتها بعينى رأسها تلقى أحدها وأنها لم تكن تتصور أن السيدة جونسون تكرهها إلى هذا الحد لأنها متأكدة من أنه لا يوجد سبب يدعو لتلك الكراهية . ولكن هذا هو ما حدث وهى من وقتها لا تغمض لها عين مخافة أن تقتلها المتهمة أو تقتل زوجها أو تقتلهما معاً .

* * *

وأنكرت السيدة جونسون الوقائع والبواعث .. وأصابها الذهول لأن المحكمة لم تصدق أقوالها وإنكارها وصدقت افتراءات السيدة وودمان . وحكمت على السيدة جونسون بستة أشهر حبساً .

ووجد جونسون نفسه مطالباً بأن يتولى بمفرده العناية بابنتيه وبالحانوت ولم يعد قادراً على القيام بجولته اليومية على العملاء .. فتضاءل إيراده وأصبح فى ضيق شديد .

* * *

ومضت الشهور الستة — بالعرض أو بالطول كما يقولون — وخرجت السيدة جونسون من السجن تنعى سوء حظها ولا تجد تفسيراً للمصيبة التى حلت بها ، ورجت أن تكون سحابة صيف قد انقشعت فوجهت

همها للعناية ببيتها وحانوتها بعد أن أدى غيابها الطويل إلى بوار التجارة وإهمال المنزل .

ولم تكد تمضى ستة أسابيع حتى جاء إليها رجل البوليس وبيده أمر بالقبض عليها وكانت التهمة الموجهة إليها فى تلك المرة خطابات تهديد بالجملة لآل وودمان بالقتل . وللسيد جوس بحرق منزله . وللسيد روبنسون بالقتل . وبطلب مبالغ من الميجر كنجسلى فوستر الذى أصدر الحكم السابق عليها والكونستابل آتوود الذى حقق معها .

ومثلت هذه المرة أمام قضاة التحقيق الذين أحالوها مقبوضاً عليها إلى محكمة الجنايات ، وهناك وجدت أن التهم الموجهة إليها قد جزئت إلى عدة تهم وأنها ستحاكم عن كل تهمة على حدة .

وبدأت محكمة الجنايات بنظر قضية خطابات التهديد الموجهة لآل وودمان . وكانت الأدلة فيها هى الأدلة السابقة . لقد خرجت المتهمة من السجن فى يوم ١٥ مارس وبعد خروجها بيومين بدأ سيل خطابات التهديد . فهل يحتاج الأمر إلى دليل جديد ؟؟ لذلك بدا للمحلفين أن الأمر واضح — غاية الوضوح — فلم يطل تداولهم وأصدروا قرارهم بالإدانة مع أن الأمر كان يتطلب أن يتساءلوا : كيف تصل الغفلة بالسيدة جونسون — إن كانت هى التى أرسلت خطابات التهديد السابقة والجديدة — أن لا يتجه إليها نظر الاتهام .

* * *

ويبدو أن بعضاً من الشك قد خامر المحلفين ففعلوا ما يفعله بعض القضاة الذين يحكمون بحكم بسيط إذا لم يكونوا واثقين من ثبوت التهمة ويظنوا بذلك أنهم يريحون ضمائرهم متجاهلين أن الشك يجب أن يفسر لمصلحة المتهم . لقد أدانوها ولكنهم قالوا فى قرارهم إن الخطابات لا تحتوى على أى تهديد ، وكان ذلك يلزم القاضى بأن ينطق بالبراءة . ولكن

القاضي – متأثراً بسابقة الحكم عليها – أصدر حكماً بالحبس سنة كاملة .

وفى هذه المرة وجدت السيدة جونسون من يشير عليها باستئناف الحكم فاستأنفته ووجدت محكمة الاستئناف أن القاضى قد أخطأ فى حكمه فألغت الحكم . ولكن مسز جونسون ظلت رهينة السجن حتى يفصل فى القضايا الأربع الأخرى .

عرضت القضايا الأربع بعد أسبوعين على محكمة الجنايات وقدم ممثل الاتهام سبعين خطاباً كلها بنفس الخط وبها نفس الأخطاء اللغوية والنحوية وبها ألفاظ بذيئة ووقحة لدرجة أن القاضى كان يأمر بإخلاء القاعة من النساء والأطفال عند قراءة محتوياتها .

ودلل ممثل الاتهام على إدانة السيدة جونسون بأن بعض الخطابات موجهة إلى روبنسون الذى سبق أن تشاجر مع زوجها وإلى الميجر فوستر الذى سبق أن أصدر حكماً عليها وإلى الكونستابل آتوود الذى حقق معها وأن الإرسال بدأ بعد خروجها من السجن بيومين . وأن بالخطابات إشارة إلى حوادث وقعت لها أو لزوجها وفيها حديث عن شهوة الانتقام . فمن يكون قد كتبها إلا المتهمة التى سبق أن دمغها القضاء بمثل هذه الجريمة ؟؟؟

وكان المحلفون قد طلبوا فى قرارهم فحص قواها العقلية فقام الأطباء بفحصها ووجدوها كاملة القوى العقلية لا تشعر بأى نوع من الاضطهاد ولا تبدى أى علامة من علامات الجنون ، اللهم إلا إحساسها بالظلم الذى وقع عليها والذى لا تعرف له مبرراً .

* * *

ووجد جونسون نفسه للمرة الثانية فى مأزق حرج . جاهد ليحتفظ بحانوته – مصدر رزقه – ولكن الناس لا ترحم . إنه زوج لمجرمة تهدد الناس فى حياتهم وممتلكاتهم . فامتنعوا عن الذهاب إلى الحانوت . وكان

كلما مر على أحدهم فى بيته تجهم له وأغلق الباب فى وجهه .

واضطر ليجد طعام ابنتيه أن يبيع العربة والحصان وأثاث المنزل .

وانتهى سجن الزوجة فى يونيو سنة ١٩١٤ . وخرجت لتجابه ما حل بها من خراب ونضوب كل مورد لها للارتزاق . فاتفقت مع زوجها على أن يرحلا من تلك القرية التى تراكمت عليهما فيها المصائب . ولكن اليد العاملة فى الخفاء التى تربصت لهما فى الماضى لم تشأ أن تتركهما وشأنهما . وإذا بالبوليس يأتى للمرة الثالثة للقبض عليها وزوجها بتهمة إرسال مئات من خطابات التهديد للسيد وودمان .

وعرضت قضيتهما على المحكمة ولكن المحلفين بدأوا يشعرون أن اللعبة قد طالت فأصدروا قراراً بالبراءة ..

* * *

وكان يمكن أن تقف القضية عند هذا الحد ولا يكتشف الفاعل الأصلى للجريمة ، لولا أن الشك بدأ يخامر أحد رجال التحقيق فبدأ يدرس بدقة الأدلة فى القضايا الأربع ، فتبين أن أقوال السيدة وودمان فى القضايا الأربع ثابتة لا تغيير فيها ، كأنما تتلو كلاماً محفوظاً . وليس ذلك شأن الشاهد الصادق . كما تبين أن أقوال السيدة وودمان هى الدليل الوحيد فى القضية بحيث إذا استبعدنا تلك الأقوال أصبحت القضايا خالية من كل دليل .

* * *

وجه رجل التحقيق اهتمامه إذاً للسيدة وودمان وأخذ يتحرى أحوالها . فاكتشف أنه ما من سبب يدعو السيدة جونسون لكره السيدة وودمان ، بينما توجد أسباب عديدة تدعو هذه الأخيرة للحقد على السيدة جونسون . منها الطريقة التى عامل بها جونسون زوجها . ومنها

تضامن السيدة جونسون مع زوجها وقطعها كل علاقة بالسيدة وودمان فى حين أنها فى حاجة إلى من يشغل فراغها لأنها بدون أولاد وليس لها عمل يشغل وقتها . كما وجد أنها تلوك بلسانها فى كل حديث أن للانتقام لذة لا تفوقها لذة وأن التسامح من شأن الضعفاء .

* * *

وأفضى صاحبنا بشكوكه لرئيس البوليس واتفقا على طريقة يقطعان بها الشك باليقين . قال رئيس البوليس إنه إذا صح أن السيدة وودمان هى التى أرسلت خطابات التهديد فإنها — وقد فشلت آخر محاولة لها للانتقام — لابد أن تعيد الكرة وترسل خطابات تهديد جديدة . فأعد مجموعة خطابات بيضاء من النوع السابق استعماله فى خطابات التهديد ووضع عليها علامات مميزة خفية وعمل على بيعها للسيدة وودمان . كذلك اتفقا مع مكتب البريد على أن يبيع المكتب لها طوابع مميزة .

وتحققت ظنونهم . وبدأ سيل جارف من خطابات التهديد على الورق المميز والطوابع المميزة ... وبرح الخفاء وقدمت السيدة وودمان بتهمة الحنث فى اليمين وإرسال خطابات التهديد .

* * *

واعترفت السيدة وودمان بإرسال خطابات التهديد وما كان لها إلا أن تعترف بعد أن ووجهت بالدليل المادى . ولكنها زعمت أن شخصاً اسمه وليم شاروود ، عرفته قبل ثمانى سنوات ، هو الذى جاء إليها ومعه مجموعة من الخطابات طلب منها وضعها فى صندوق البريد ، فلما امتنعت هددها بسكين . وأنه أخذ يتردد عليها من وقت لآخر بنفس الطلب فكانت تفعل من خوفها منه وأنها لم تلجأ للبوليس خوفاً من شره.

وبالرغم من وضوح كذب هذا الدفاع استدعت المحكمة السيد

شارووود فأنكر ما نسبته إليه المتهمة . وطلب محاميها فحص قواها العقلية ولكن الأطباء أكدوا أنها مسئولة وأن رغبة الانتقام لا تنهض دليلا على فقدان القوى العقلية.

وحكمت عليها المحكمة بالسجن ثمانية عشر شهرا . وهى المدة التى قضتها جونسون التعسة فى السجن .

* * *

وكان جونسون وزوجته قد باعا كل ما يملكانه من حطام الدنيا وهجرا القرية وعمل الزوج أجيراً .

ثم صدر عفو عام عن العقوبتين اللتين حكم بهما ظلماً على السيدة جونسون ودفعت لها الحكومة خمسمائة جنيه تعويضاً عن الآلام التى تحملتها .

سلسلة (اقرأ)

الكتب التى نشرت فيها منذ صدورها فى يناير ١٩٤٣ حتى الآن

١ أحلام شهر زاد (تأليف : طه حسين)

٢ شاعر الغزل : عمر بن أبى ربيعة (عباس محمود العقاد)

٣ مذبح المريخ : (فؤاد صروف)

٤ عود على بدء (إبراهيم عبد القادر المازنى)

٥ دستو يفسكى (حسن محمود)

٦ شاعر ملك (على الجارم)

٧ الشاعر الرجيم بودلير (عبد الرحمن صدقى)

٨ مذكرات دجاجة (إسحق موسى الحسينى)

٩ المذاهب السياسية المعاصرة (على أدهم)

١٠ شفاء النفس (يوسف مراد)

١١ الكون العجيب (قدرى حافظ طوقان)

١٢ سنوحى (محمد عوض محمد)

١٣ جميلة بثينة (عباس محمود العقاد)

١٤ من يوميات فتاة عصرية (حسين شوقى)

١٥ بايرون (أمينة السعيد)

١٦ دمشق : مدينة السحر والشعر (محمد كرد على)

١٧ شكسبير (محمد فريد أبو حديد ، وزكى نجيب محمود وأحمد خاكى)

١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حقى)

١٩ سيدة القصور (على الجارم)

٢١ أبو نواس (عبد الحليم عباس)

٢٢ جحا فى جانبولاد (محمد فريد أبو حديد)

٢٣ صوت أبى العلاء (طه حسين)

٢٤ لافوازييه (عبد الحميد يونس ، وعبد العزيز أمين)

٢٥ قصة البنيسيلين (مصطفى عبد العزيز)

٢٦ العشاق الثلاثة (زكى مبارك)

٢٧ بغداد مدينة السلام (طه الراوى)
٢٨ بوشكين : أمير شعراء روسيا
(نجاتى صدقى)
٢٩ النار والنور (أمين إبراهيم كحيل)
٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان)
٣١ الغزالى (طه عبد الباقى سرور)
٣٢ الشيخ قرير العين
(كرم ملحم كرم)
٣٣ فى بيتى (عباس محمود العقاد)
٣٤ فارس بنى حمدان (على الجارم)
٣٥ جوته (صديق شيبوب)
٣٦ مع الحيات (حسين فرج زين الدين)
٣٧ العناصر النفسية فى سياسة العرب
(شفيق جبرى)
٣٨ العلم والحياة (على مصطفى مشرفة)
٤٠ مهد العرب (عبد الوهاب عزام)
٤١ الفيتامينات
(مصطفى عبد العزيز ،
ومحمد رشاد الطوبى)
٤٢ قصة عبقرى (يوسف العش)
٤٣ عنترة بن شداد
(محمد فريد أبو حديد)
٤٤ قصة العدوى
(محمد عبد الحميد جوهر)

٤٥ مشاهدات فى الهند (أمينة السعيد)
٤٦ الشيخ الرئيس : ابن سينا
(عباس محمود العقاد)
٤٧ أبو زيد الهلالى
(محمد فهمى عبد اللطيف)
٤٨ غرائز الحيوانات
(محمد محمد فياض)
٤٩ بين البحر والصحراء
(شفيق جبرى)
٥٠ تشيخوف (نجاتى صدقى)
٥١ الشاعر الطموح (على الجارم)
٥٢ النار الخالدة (فؤاد صروف)
٥٣ قصة الكتابة العربية
(إبراهيم جمعة)
٥٤ تولستوى (حسن محمود)
٥٥ مع الأسماك
(حسين فرج زين الدين ،
وموسى باسيليوس)
٥٦ طرائف من الصحافة
(محمود العزب موسى)
٥٧ قضية فلسطين (محمد رفعت)
٥٨ خاتمة المطاف (على الجارم)
٥٩ الجوارى (جبور عبد النور)
٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)

٦١ الموج الساحر (محمد عاطف البرقوقى)
٦٢ مرح الوليد (على الجارم)
٦٣ رقيق الأرض (نظمى لوقا)
٦٤ الأغذية الشعبية
(حسن عبد السلام)
٦٥ عمر بن عبد العزيز
(أحمد زكى صفوت)
٦٦ مملكة العذارى (أحمد أبوشادى)
٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الطناحى)
٦٨ جمال الدين الأفغانى
(عبد القادر المغربى)
٦٩ رحلة الربيع (طه حسين)
٧٠ الجبرتى (خليل شيبوب)
٧١ الهرمونات (محمود رشاد الطوبى
وفؤاد خليل)
٧٢ فولتير (سليم سعدة)
٧٣ أسرار الحياة (مصطفى عبد العزيز
وعبد العزيز أمين)
٧٤ قصر الرشيد (طه الحاجرى)
٧٥ العيون فى العلم
(قدرى حافظ طوقان)
٧٦ ثم غربت الشمس (سهير القلماوى)
٧٧ المغنى المجنون (أحمد الصاوى محمد)
٧٨ سقراط (على حافظ بهنسى)

٧٩ بيراندللو (محمد أمين حسونة)
٨٠ الحب الكراهية
(أحمد فؤاد الأهوانى)
٨١ فى بلاد النجاشى (مراد كامل)
٨٢ فرانزليست (خليل هنداوى)
٨٣ من النافذة
(إبراهيم عبد القادر المازنى)
٨٤ الوراثة والجنس (عبد الحليم منتصر)
٨٥ بيتهوفن (محمد فهمى أبو النصر،
وهدى حبيشة)
٨٦ الوعد الحق (طه حسين)
٨٧ غادة رشيد (على الجارم)
٨٨ الهنود الحمر (على عبد الواحد وافى)
٨٩ برنارد شو (عباس محمود العقاد)
٩٠ قصة البترول
(يوسف مصطفى الحارونى)
٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه
(محمد محمد فياض)
٩٢ الجامعة (أمينة السعيد)
٩٣ العالم سنة ٢٠٠٠
(على عبد الجليل راضى)
٩٤ طرائف من التاريخ
(مصطفى الشهابى)
٩٥ من أضواء الماضى (سامى الكيلانى)

٩٦ شيخ التكية (محمد عبده عزام)
٩٧ فلاسفة الحكم فى العصر الحديث (عباس محمود العقاد)
٩٨ الخوف (أحمد فؤاد الأهوانى)
٩٩ نساء محاربات (صوفى عبد الله)
١٠٠ قصة العناصر (إمبابى أحمد)
١٠١ ملامح من المجتمع العربى (محمد عبد الغنى حسن)
١٠٢ من نافذة العقل (نقولا فياض)
١٠٣ المهدى والمهدوية (أحمد أمين)
١٠٤ أرض المعجزات (بنت الشاطئ)
١٠٥ الحب الضائع (طه حسين)
١٠٦ سجل التوبة (أمين الريحانى)
١٠٧ تحرير وادى النيل (محمود كامل)
١٠٨ سارة (عباس محمود العقاد)
١٠٩ نديم الخلفاء (عبد الستار أحمد فراج)
١١٠ نحن المعمرون (حسن عبد السلام)
١١١ الصعلكة والفتوة فى الإسلام (أحمد أمين)
١١٢ مع طه حسين (سامى الكيالى)
١١٣ عبقرية الإمام (عباس محمود العقاد)
١١٤ الفن المصرى الإسلامى (محمد عبد العزيز مرزوق)
١١٥ الإمام المراغى (أنور الجندى)
١١٦ اللحن الشرود (كرم ملحم كرم)
١١٧ تيجان تهاوت (محمد عبد الغنى حسن)
١١٨ المعذبون فى الأرض (طه حسين)
١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم)
١٢٠ شاعر الشعب (محمد سامى الدهان)
١٢١ عذراء الأندلس (أحمد الصاوى محمد)
١٢٢ أشطر من إبليس (محمود تيمور)
١٢٣ الحكماء الثلاثة (أحمد الشنتناوى)
١٢٤ قصة العقاقير (محمود محمد سلامة)
١٢٥ الصديقة بنت الصديق (عباس محمود العقاد)
١٢٦ من ذكريات الفن والقضاء (توفيق الحكيم)
١٢٧ شلى (أحمد الصاوى محمد)
١٢٨ الجدة الصغيرة (حسن محمود)
١٢٩ زامر الحى (محمود تيمور)
١٣٠ فى بطون الليالى (رشاد دارغوث)
١٣١ أمين الريحانى (مارون عبود)
١٣٢ البساط السحرى (عبد السلام فهمى)
١٣٣ النسيان (أحمد فؤاد الأهوانى)
١٣٤ أساطير مصرية (عبد المنعم أبو بكر)

١٣٠ ليلى العفيفة (عادل الغضبان)
١٣١ أبو على الفنان (محمود تيمود)
١٣٢ سيكولوجية الجنس (يوسف مراد)
١٣٣ الجمعيات السرية (على أدهم)
١٣٤ تيمورلنك (محمد محمد فياض)
١٤٠ عائشة بنت طلحة (كمال بسيونى)
١٤١ بنت قسطنطين (محمد سعيد العريان)
١٤١ بطل السند (محمد عبد الغنى حسن)
١٤٢ ابن عمار (ثروت أباظة)
١٤٤ ابن بطوطة فى العالم الإسلامى
(إبراهيم أحمد العدوى)
١٤٥ عيون معصوبة (محمد كامل)
١٤٦ هذا الإنسان (حبيب صادر)
١٤٧ مارس يحرق معداته
(عيسى الناعورى)
١٤٨ أخى المواطن (فتحى رضوان)
١٤٩ بين البقاء والفناء
(قدرى حافظ طوقان)
١٥٠ وعى الشباب (واصف البارودى)
١٥١ العاشقة المتصوفة (ورادسكا كيفى)
١٥٢ قلوب معذبة (قدرى قلعجى)
١٥٣ دماء وطين (يحيى حقى)
١٥٤ أينشتين والعالم
(محمد عاطف البرقوقى)
١٥٥ بنت يزيد (سامى الكيالى)
١٥٦ النوم والأرق (أحمد فؤاد الأهوانى)
١٥٧ غرام الأدباء (عباس خضر)
١٥٨ الغيرة (إبراهيم المصرى)
١٥٩ أجواء (حسن محمود)
١٦٠ حبات المسبحة (يحيى نامق)
١٦١ الفلسفة الوجودية (زكريا إبراهيم)
١٦٢ مكسيم غوركى (نجاتى صدقى)
١٦٣ غرائب الرحلات
(محمد عبد الغنى حسن)
١٦٤ دانتى (مصطفى آل عيال)
١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد)
١٦٦ الأحلام والرؤى (عبد العزيز جادو)
١٦٧ أنات الساقية
(حسن عبد الله القرشى)
١٦٨ القارة العذراء (محمود العزب وهبى)
١٦٩ عادات الزواج وشعائره
(أحمد الشنتناوى)
١٧٠ القلق (أبو مدين الشافعى)
١٧١ حرب الخامات (عبد الحليم منتصر)
١٧٢ المخترعون (أحمد طه السنوسى)
١٧٣ الجزر الخضراء (حبيب جاماتى)
١٧٤ فنون السحر (أحمد الشنتناوى)
١٧٥ هذا الشرق العزبى (فتحى رضوان)

١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد)
١٧٧ صور من أفريقية
(محمد محمود الصياد)
١٧٨ الصعود إلى المريخ
(محمد جمال الدين الفندى)
١٧٩ السفارات الإسلامية إلى أوربا
فى العصور الوسطى
(إبراهيم أحمد العدوى)
١٨٠ ضعاف العقول (مترى أمين)
١٨١ هجرة الحيوان
(أحمد حماد الحسينى)
١٨٢ لمحات من الأدب الروسى
(ماهر نسيم)
١٨٣ الثريا (كمال بسيونى)
١٨٤ المراسل الحربى
(محمود محمد الجوهرى)
١٨٥ الغبار الذرى
(محمد جمال الدين الفندى)
١٨٦ عاشقة نفسها (حسن رشاد)
١٨٧ طاغور (جميل جبر)
١٨٨ الثورة العرابية وأثرها فى تطور
الشعب ونهضته
(محمد عصام المرشدى)

١٨٩ عصر الإلكترونات
(جورج وهبه العنى)
١٩٠ المساجد والقصور بالأندلس
(السيد محمود عبد العزيز سالم)
١٩١ الهزات الزلزالية (محمد على المغربى)
١٩٢ أدباء الجزائر (إبراهيم الكيلانى)
١٩٣ دون جوان (لطفى عبد البديع)
١٩٤ الطوطمية (على عبد الواحد وافى)
١٩٥ محكمة الضمير (حسن رشاد)
١٩٦ قوى الطبيعة فى خدمتك
(جمال الدين الفندى)
١٩٧ جان جاك روسو
(محمد سامى الدهان)
١٩٨ الكلف الشمسى (محمد على المغربى)
١٩٩ عرس ومأتم (البدوى الملثم)
٢٠٠ مواطن أمام القضاء
(فاضل السباعى)
٢٠١ التنبؤ بالغيب قديماً وحديثاً
(أحمد الشنتناوى)
٢٠٢ الإرهاق العصبى (نظمى خليل)
٢٠٣ القومية العربية فى الأدب الحديث
(محمد زغلول سلام)
٢٠٤ فيكتور هوجو (جورج زايد)

٢٠ الوجودية والإسلام
(محمد لبيب البوهى)
٢٠٠ جولة فى الإقليم الشمالى
(يوسف سمارة)
٢٠١ الناصر صلاح الدين
(محمد سامى الدهان)
٢٠٨ الإسلام فى السودان
(محجوب زيادة)
٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد)
٢١٠ أمراض الصيف (أنيس فهمى)
٢١١ الفروسية العربية فى العصر الجاهلى (سيد حنفى)
٢١٢ العرب ورسالتهم الإنسانية
(على حسنى الخربوطلى)
٢١٣ الألعاب الأولمبية
(مصطفى الشهابى)
٢١٤ عصر التليفزيون
(جورج وهبى العفى)
٢١٥ قصة ملكة سبأ (زاهر رياض)
٢١٦ وحدة العرب
(إبراهيم الدسوقى البساطى)
٢١٧ لكى تكون سعيداً
(عبد العزيز جادو)
٢١٨ الشفق القطبى (محمد على المغربى)
٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر)
٢٢٠ الحب المثالى عند العرب
(يوسف خليل)
٢٢١ التصنيع طريقنا إلى القوة والرخاء
(حسن الأشموني)
٢٢٢ الحياة المثالية وكيف نحققها
(محمود أحمد حماد)
٢٢٣ الشاعر الشهيد هاشم الرفاعى
(محمد كامل حتة)
٢٢٤ الأسنان ، أمراضها وعلاجها
(حليم الكدوانى)
٢٢٥ المجتمع العربى (محمود الشرقاوى)
٢٢٦ النفس الإنسانية فى أدب الجاحظ
(سامى الكيالى)
٢٢٧ الإنسانى والمرض (أحمد مختار)
٢٢٨ التعبئة الروحية فى بناء المجتمع
(حسن الأشموني)
٢٢٩ الطريق إلى النجاح
(عبد العزيز جادو)
٢٣٠ الجغرافيون العرب
(مصطفى الشهابى)
٢٣١ صور من كفاح الشعب العربى
(جمال الدين الرمادى)

٢٣٢ أبو القاسم الشابى شاعر الحب والثورة (رجاء النقاش)
٢٣٣ المرأة فى الشعر البحترى (نعمات أحمد فؤاد)
٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العنانى)
٢٣٥ المساومة فى الإسلام (على عبد الواحد وافى)
٢٣٦ عالج نفسك (كمال دسوقى)
٢٣٧ باقة طيبة (محمد كامل سند)
٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصرى)
٢٣٩ أخطاء الأطباء (فائق الجوهرى)
٢٤٠ نفوس تتكلم (ودادسكاكينى)
٢٤١ نحو حياة مشرقة (عبد العزيز جادو)
٢٤٢ تعداد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية (محمود سلام زناتى)
٢٤٣ لماذا الاشتراكية العربية ؟ (لمعى المطيعى)
٢٤٤ التماثيل المكسورة (رجاء النقاش)
٢٤٥ الفن وتنمية السلوك الاشتراكى (محمود البسيونى)
٢٤٦ البين بين القات وفساد الحكم قبل الثورة (محمد السيد أيوب)
٢٤٧ البحر المتوسط بحيرة عربية (على حسنى الخربوطلى)
٢٤٨ من الأدب الإفريقى (على شلش)
٢٤٩ عصر الطاقة الشمسية (جورج وهبه العنى)
٢٥٠ ابن حمديس الصقلى (على مصطفى المصراتى)
٢٥١ القيادة الجماعية فى مجال التطبيق العملى (أحمد مصطفى عيسى)
٢٥٢ الأمن والسلام فى الإسلام (جمال الدين الرمادى)
٢٥٣ الصين والعرب عبر التاريخ (محمد محمود زيتون)
٢٥٤ من أعلام الحرية فى العالم العربى الحديث (أنور الجندى)
٢٥٥ العوالم الأخرى (محمد جمال الدين الفندى)
٢٥٦ عشرة من الخالدين (إبراهيم المصرى)
٢٥٧ أمراض نفسية (كمال دسوقى)
٢٥٨ المحاماة فى المجتمع الاشتراكى (أبو اليزيد على المتيت)
٢٥٩ مع العقاد (شوقى ضيف)
٢٦٠ دعاء (على أمين)
٢٦١ عروبتنا (محمود كامل)
٢٦٢ بقايا كل شىء (أنيس منصور)

٢٦٣ عجائب الأرض والسماء
(محمد جمال الدين الفندى)
٢٦٤ ٤٥ مشكلة حب (مصطفى محمود)
٢٦٥ الأمثال فى القرآن
(محمود بن الشريف)
٢٦٦ النقائص والنجاح
(ضياء الدين أبو الحب)
٢٦٧ آخر كلمات العقاد
(الأستاذ عامر العقاد)
٢٦٨ لبيك (محمد كامل حتة)
٢٦٩ قلوب الخالدين (إبراهيم المصرى)
٢٧٠ فى أضواء المسرح (رجاء النقاش)
٢٧١ نماذج من النساء
(محمد زكى عبد القادر)
٢٧٢ الجسد والميكروب
(مصطفى عبد العزيز)
٢٧٣ مذكرات طبيبة (نوال السعداوى)
٢٧٤ المزاعم الصهيونية فى فلسطين
(فتحى فوزى عبد المعطى)
٢٧٥ الوحدة الإفريقية
(محمد أبو الفتوح الخياط)
٢٧٦ صنيعة الشيطان (حسن رشاد)
٢٧٧ عبد المطلب جد الرسول
(على حسنى الخربوطلى)

٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبة رزق)
٢٧٩ مع الآخرين (أنيس منصور)
٢٨٠ الدعاء فى القرآن
(محمود بن الشريف)
٢٨١ خالدون فى الوطن (إبراهيم المصرى)
٢٨٢ الصيدلة علم وفن وإنسانية
(جورج وهبه العنى)
٢٨٣ دماء فى الفجر «فى سبيل الحرية»
قصة بدأها الرئيس « جمال عبد الناصر » وهو طالب بالمدارس الثانوية عن معركة رشيد سنة ١٨٠٧ وأكملها فاروق حلمى
٢٨٤ عروسة على الرف (صوفى عبد الله)
٢٨٥ فيتامينات وهرمونات
(محمد صدق عبده ، ومحسن الدناصورى ، ونجيب الإبراشى)
٢٨٦ الغذاء الكامل أساس الصحة
(أسامة أمين العطار)
٢٨٧ قصص من جوته .« ترجمة »
(عبد الغفار مكاوى)
٢٨٨ قصص الحب العربية – أغراضها وتطورها (عبد الحميد إبراهيم محمد)
٢٨٩ البارونة أم أحد (محمود تيمور)

٢٩٠ شخصيتك فى الميزان
(عبد الكريم دهينة)
٢٩١ الكعبة على مر العصور
(على حسنى الخربوطلى)
٢٩٢ شىء من الخوف (ثروت أباظة)
٢٩٣ معركة العلمين (السيد فرج)
٢٩٤ كوكب الإنسانية
(أحمد حسين المحامى)
٢٩٥ فلسطين قلب العروبة
(محمد فيصل عبد المنعم)
٢٩٦ البترول العربى فى المعركة
(محمد أمين)
٢٩٧ ابن السلطان (عبدالغفار مكاوى)
٢٩٨ ٤ كتب و ٤ كتاب
(محمد بدر الدين خليل)
٢٩٩ التغذية ومخاطر الصناعة
(أسامة أمين العطار)
٣٠٠ الصيام فى القرآن (محمد الدسوقى)
٣٠١ مع طه حسين — الجزء الثانى
(سامى الكيالى)
٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحى)
٣٠٣ من عجائب الحياة (فوزى الشتوى)
٣٠٤ الحرية فى الإسلام
(على عبد الواحد وافى)
٣٠٥ قصة الفلسفة (مراد وهبة)
٣٠٦ سندباد فى رحلة الحياة
(حسين فوزى)
٣٠٧ قالت له (محمد زكى عبدالقادر)
٣٠٨ البحر والناس
(سيد حسن شرف الدين)
٣٠٩ التفاؤل والتشاؤم
(نجيب يوسف بدوى)
٣١٠ حوار مع برتراند رسل وسارتر
(لطفى الخولى)
٣١١ حرب الأفيون (محمد العزب موسى)
٣١٢ الرسول فى رمضان
(على حسنى الخربوطلى)
٣١٣ « عفراء » قصة الحب الخالد
(فايد العمروسى)
٣١٤ الفداء فى الإسلام (أحمد الشرباصى)
٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
٣١٦ سجين ثورة ١٩١٩
(محمد مظهر سعيد)
٣١٧ صور باريسية (يوسف فرانسيس)
٣١٨ أسنانك وكيف تحافظ عليها
(فاروق مرشد)
٣١٩ فى مواجهة إسرائيل
(إسماعيل صبرى عبد الله)

٣٢٠ مذكرات زوج (أحمد بهجت)
٣٢١ الإنسان الأوربي في الجد واللعب (عبد الستار الطويلة)
٣٢٢ قناة السويس في مائة عام (محمد عبد الرحمن برج)
٣٢٣ مع المصطفى في عصر البعث (بنت الشاطىء)
٣٢٤ هوشي منه (جورج عزيز)
٣٢٥ لمحات من المسرح العالمي (جاذبية صدقي)
٣٢٦ الروح والخلود بين العلم والفلسفة (عبد العزيز جادو) — تقديم (رؤوف عبيد)
٣٢٧ مواقف إسلامية (عبد العزيز كامل)
٣٢٨ المعقول واللا معقول (أحمد فؤاد الأهواني)
٣٢٩ رسائل إلى ولدي خالد (بقلم البدوي الملثم)
٣٣٠ أروى بنت اليمن (عارف تامر)
٣٣١ البطولة في الشعر العربي (شوقي ضيف)
٣٣٢ يوم بيوم (أنيس منصور)
٣٣٣ رسائل وأسرار (محمد التابعي)
٣٣٤ ماذا نستخرج من البترول (جورج وهبه العنى)
٣٣٥ القرآن والتفسير العصري «هذا بلاغ للناس» (بنت الشاطىء)
٣٣٦ مكرر — أيام خالدة في حياة عبد الناصر (جمال الدين العطيفي)
٣٣٦ النفس والبدن (إبراهيم فهيم)
٣٣٧ في اللغة والأدب (إبراهيم بيومي مدكور)
٣٣٨ الهجرة في القرآن (محمد الدسوقي)
٣٣٩ مومس تؤلف كتاباً وقصص أخرى (فتحي رضوان)
٣٤٠ محمد عبد الوهاب (محمود عوض)
٣٤١ في مولد النبي (حسين الشافعي)
٣٤٢ صراع الأجيال في أدبنا المعاصر (غالي شكري)
٣٤٣ إلى صاعدة (حلمي سلام)
٣٤٤ الوادي السعيد (لويس عوض)
٣٤٥ مذكرات ذرة (عبد المحسن صالح)
٣٤٦ ذكريات عارية (السيد أبو النجا)
٣٤٦ مكرر أحاديث رمضان (عبد العزيز كامل)
٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
٣٤٨ نحو النور (محمد زكي عبد القادر)
٣٤٩ هؤلاء علموني (سلامة موسى)
٣٥٠ دموع في عيون ضاحكة (يوسف جوهر)

محتويات الكتاب

	الصفحة
كبش الفداء !	٥
الحكم بإعدام رجل برىء !	٣١
ضحية الاضطهاد العنصرى	٥٠
المجرم : الزوج أم العاشق؟	٦٩
رفض الزواج منها . . فسجنته !	٨٦
النقر على جدران السجن	١٠٢
رب مصادفة شر من ميعاد !	١١٣
الحب القاتل !	١٢٧
من مأمنه يؤتى الحذر !	١٣٧
الزوجة الثانية . . وحبل المشنقة !	١٥٠
جارة السوء !	١٦٨

وصلت فى قفزتها الأولى إلى ٥٠ر٠٠٠ نسخة
وستصل فى هذه القفزة إلى ٧٠ر٠٠٠ نسخة

صدر منها فى الأشهر الستة الأخيرة :

أكتوبر ١٩٧١	:	ذكريات عارية للدكتور السيد أبو النجا
رمضان ١٣٩١	:	أحاديث رمضان للدكتور عبد العزيز كامل
نوفمبر ١٩٧١	:	بنك القلق للأستاذ توفيق الحكيم
ديسمبر ١٩٧١	:	نحو النور للأستاذ محمد زكى عبد القادر
يناير ١٩٧٢	:	هؤلاء علمونى للأستاذ سلامه موسى
فبراير ١٩٧٢	:	دموع فى عيون ضاحكة للأستاذ يوسف جوهر
مارس ١٩٧٢	:	من أخطاء القضاء للأستاذ حسن الجداوى

الكتاب القادم

(عدد أبريل ١٩٧٢)

عندما تحب المرأة

مجموعة قصص مصرية

بقلم

حلمى مراد

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٢/٢٢١٢

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٢